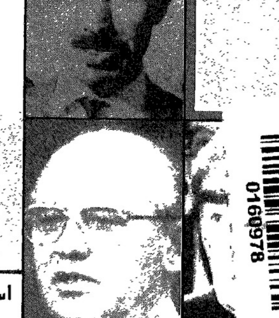
الصحة و السلطة





اسرار مرض عبد الناصر وبريجينيف
وبومدين ورؤساء آخرين

مذكرات كبير أطباء الكريملين (يفغيني شازوف)

ترجمة وإعداد د. / إيمان يحيى

مذكرات كبير أطباء الكريملين

الصحة والسلطة

بروفيسور يفغيني شازوف

إعداد وترجمة

دكتور / إيمان يحيى

صف كمبيوتر : ياسـر شريف
سحر درويش
مونتـــاج : أيمن غالـــى
الطباعـة
دار الطباعـة المتميـزة
القاهرة ت : ٢٩٩٣٥٤٢
رقم الأيداع بدار الكتب المصرية
٩٣ / ٢١٨٣
I.S.B.N.
977 - 00 - 4652 - 3

جمهورية مصر العربية ـ القاهرة
المنطقة الصناعية بمصر الجديدة ـ مدينة قباء
امتداد ش جسر السويس أمـــام سوق القنال
الدولى ت : ٢٩٩٣٥٤٢ ـ فاكس : ٢٩٩٣٧١٨

قبل أن تبدأ

منذ شهور قليلة انفجرت قنبلة فى موسكو ـ وكان للقنبلة صوت مميز رغم عشرات القنابل والفرقعات التي تحدثها مذكرات الساسة واكتشافات المؤرخين عن الحقبة السوفيتية ١٩١٧ ـ ١٩٩١ .

وكان لقنبلة البروفيسور " يفغينى شازوف " وقع مختلف تماماً لدرجة أنها استطاعت لفت الانتباه وسط ضجيج وصخب هائلين .

ولاشك أن أهمية مذكرات الدكتور شازوف تنبع بالأساس من المنصب الهام والحيوى الذى كان يشغله ومن رئاسته للإدارة الرابعة

للصحة بالكريملين بين عامى ١٩٦٧ و ١٩٨٥ قبيل أن يصبح وزيراً للصحـــة أو بالأحرى آخر وزير للصحة فى الاتحاد السوفيتى الذى كان .

ولكن لماذا تسببت " قنبلة " البروفيسور شازوف فى كل تلك الأصداء داخل بلاده ؟ .

لأن تلك المذكرات تحتوى على مجموعة من الأسرار الخاصة بصحة القيادة السوفيتية السابقة وزعماء العالم الذين لجأوا إلى الاتحاد السوفيتى للعلاج فى مزيج رائع بين " الطب " و ؛ السياسة " الذى يتفاعل دائماً على صفحات مذكرات الدكتور شازوف . وتتضح لأول مرة خلفيات لم تكن معروفة من قبل عن ثنائية " الصحة والسلطة"، وتتكشف أمام أعيننا حقائق خفية عن مصائر وأقدار زعامات وشعوب وصراعات عاتية بدأت فى غرف العيادات والمستشفيات وانتهت فى قاعات الاجتماعات الرحبة لقصور الحكم أو بدأت فى الأخيرة وانتهت فى الأولى .

وكما ندرك الموقع الذى كان يتبوأه " شازوف " والذى سمح له بأن ينفذ إلى الجانب الخفى فى حياة صانعى القرارات يجب أولاً أن نعرف ما هي " الإدارة الرابعة " للصحة ومسئولياتها ؟ .

تتبع " الإدارة الرابعة " فى وزارة الصحة مباشرة زعامة الكريملين ورئاسة المخابرات (ك. ج. ب.) وهى بذاتها تحتوى على عدد محدود من المستشفيات ودور النقاهة والعيادات فى العاصمة موسكو وفي عواصم الجمهوريات السوفيتية السابقة وفى شبه جزيرة القرم . ويعمل فى تلك الإدارة أنبغ الأطباء السوفييت وهى مزودة بأحدث الأجهزة العلمية والطبية فى العالم .

وفى تلك الإدارة يتم تسخير كافة الإمكانات البشرية والفنية والعلمية من أجل الحفاظ على صحة ما يمكن أن نطلق عليهم " النخبة السياسية السوفيتية " أى كبار المسئولين الحكوميين والحزبيين والعلماء سواء فى موسكو أو فى بقية الجمهوريات السوفيتية الأخرى . كما أن تلك الإدارة تتولى أيضاً علاج ومتابعة الحالة الصحية لأصدقاء الاتحاد السوفيتى وزعامته على مستوى العالم . وهى إدارة طالما أحاطها الإعلام الغربى بستار من الشائعات والأساطير والغموض وجعل منها " بيتاً إنجليزياً عتيقاً تسكنه الأشباح " .

وتبرز هنا قضية هامة طرحها وفجرها الدكتور " شازوف " فى كتابه . هل كانت تلك الإدارة الخاصة والمميزة لزعماء الكريملين بمثابة امتيازاً طبقياً لهم ضمن الامتيازات الأخرى التى جعلتهم فى واد وشعبهم من جهة أخرى فى وادٍ آخر ، أم أن تلك الخدمة العلاجية

المتمثل فى زعاماتها وسياسيها وعلمائها ؟ . هل كانت تلك الإدارة ضرورية لحماية أسرار صحة الزعماء عن أعين الأعداء وأجهزة المخابرات الدولية ؟ .

قضية شائكة ومحيرة بلاشك ، لقد اكتسب الرئيس الروسى الحالى " يلتسين " شعبيته من رفضه للامتيازات الممنوحة لأعضاء الزعامة الحزبية السوفيتية فبادر بالتخلى عن تلك الامتيازات وأصبح يعالج فى عيادة طبية عادية بموسكو ، فتعاطف معه شعب موسكو وانتخبه نائباً لها رغم عنت ومعارضة " جورباتشوف " . وهذا يعبر بدلالة واضحة عن مشاعر الشعب السوفيتى تجاة " الإدارة الرابعة " للصحة وبالفعل تم الآن الغاء تلك الإدارة وأصبحت مؤسساتها تتبع وزارة الصحة .

ولكن لا يمكننا أيضاً أن نتجاهل مقتضيات السياسة والسلطة وما تفرضه من محاذير يجب مراعاتها وخاصة فى مسائل غاية فى الحساسية مثل صحة ومرض الزعماء . على كلٍ فإن صفحات الكتاب التالى تحمل فى طياتها هذه المجادلة والنقاش رغم أن صاحبها يميل إلى الدفاع عن وجود تلك الخدمات الصحية والعلاجية الخاصة والمميزة .

ويتضمن الكتاب فصول هامة من لعبة أو صراع الصحة والسياسة

وعديد من الفصول تتعلق بقيادات عربية منها الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر أو الجزائرى هوارى بومدين .

ويفجر " شازوف " من جديد تساؤلاً خطيراً : وهو هل مات بومدين مسموماً ؟ فهو يكشف للمرة الأولى أن الرئيس الجزائرى الراحل لم يكن مصاباً بسرطان الدم كما أشيع من قبل ويثير الكثير من علامات الاستفهام حول رحيل بومدين فى نهاية عام ١٩٧٨ والعديد من الملابسات الغامضة التى ظلت فى طى الكتمان حتى الآن .

إن ما يتضمنه الكتاب عن وفاة بومدين ووجود عوامل جرثومية أو سمية غير معروفة ورائها يفتح الباب واسعاً للملابسات السياسية التى أحاطت بالزعيم الجزائرى فى فترة حرجة من تاريخ بلاده والمنطقة العربية ويضع أمام الجميع مسئولية فتح ملفات مرض وموت الرئيس الجزائرى من جديد .

وبعد ٢٢ عاماً من رحيل " جمال عبد الناصر " يكشف البروفيسور " شازوف " أسرار رحلات مرض علاج الزعيم العربى الكبير الذى سبقت يوم ٢١ سبتمبر الحزين حين اختفى " عبد الناصر " عن الساحة فى أحرج لحظات الصراع العربى الإسرائيلى ويكشف الرجل عن جوانب إنسانية من شخصية " السادات " و " على صبرى " من

خلال لقاءاته بهما فى أثناء زيارته السرية إلى القاهرة لعلاج " عبد الناصر " .

ويدلف بنا البروفيسور " شازوف " إلى دهاليز قصور الكريملين لنرى صراعات السلطة بين عجائزه المرضى من الحرس القديم ، فيكشف لنا قصة سنوات المرض والعجز والإدمان التى عاشها " بريجنيف " فى السلطة . وينفذ الرجل بنا إلى قدس أقداس وسر أسرار الدراما السوفيتية التى وصلت إلى ذروتها بإعلان حل الاتحاد السوفيتى . ولقد رأى كثير من المراقبين أن بذور تلك الدراما يمكن اكتشافها فى أعماق سنوات حكم الزعيم السوفيتى الأسبق "بريجنيف" التى امتدت إلى حوالى ١٨ عاماً وانتهت بوفاته عن ٧٥ عاماً .

لقد أحيطت حياة الزعيم السوفيتى الراحل بالكثير من الأساطير .. أساطير ساهمت البيروقراطية السوفيتية فى ترويجها بإعادة تجديد صورة الزعيم الذى يتمتع بالقدرة على تصريف شئون الدولة العظمى بحيوية الشباب ، وأساطير أخرى نسجتها أجهزة المخابرات والإعلام الغربية عن أمراض خطيرة أصابت " بريجنيف " بدءاً من السرطان إلى نوبات القلب .

وخلف كل الأساطير التى لا تصمد .. يكشف " شازوف " عن

وقائع وحقائق تبدو لقسوتها أكثر غرابة ومأساوية تمتزج فيها أحكام وحتميات تقدم السن بسطوة التفرد بالسلطة والضعف الإنسانى إزاء المرأة وأصدقاء السوء . ووسط كل ذلك تتحرك صراعات داخل الزعامة نلمح بينها أسماء " بورغورنى " و " كوسيغن " و " أندروبوف " و"تشرنينكو" .

وفى ذلك الإطار يزيح " شازوف " الستار عن علاقة " بريجنيف " بممرضته الشابة التى رمز لها بحرف (ن) وكيف أن تلك العلاقة كانت تتسبب دائماً فى عودة الجهود الطبية لإنقاذ صحة ومصير "بريجنيف" إلى " نقطة الصفر " المرة تلو الأخرى .. وأن تلك العلاقة من بين الأسباب التى أودت بالدولة السوفيتية إلى المصير الذى وصلت إليه .

ويميط كبار أطباء الكريملين اللثام عن صراع السلطة الضارى داخلَ القيادة السوفيتية الذى كان مضطرباً خلف أبواب موصدة اتخذت ظاهرة الهدوء والمحافظة على الوضع القائم فى سنوات " بريجنيف " الأخيرة أو فى عهدى " أندروبوف " و " تشرنينكو " القصيرين .

وتثير ذكريات الدكتور شازوف تساؤلات كبيرة فهو يؤكد أن "أندروبوف" لم يكن الأب الروحى لأفكار البريسترويكا بصيغتها الراهنة

وأن أفكار " أندروبوف " وخططه للإصلاح كانت مرتبطة بالنظام الاشتراكى وليس بالتحول إلي بناء اجتماعى اقتصادى مغاير .

وتبرز قضية شائكة أخرى من بين سطور مذكرات " شازوف " ألا وهى علاقة الأحزاب الشيوعية الأوروبية وغير الأوروبية بالزعامة السوفيتية ومدى ارتباطها بالحزب الأم وانصياعها لأوامره لدرجة الاحتكام لأطباء الكريملين في تقرير مصير زعاماتها وقياداتها ، ويكشف كبير أطباء الكريملين عن أسرار ما حدث فى بلاط ثلاث من أكبر الأحزاب الشيوعية .. الألمانى الشرقى والفرنسى والمنغولى .

ووراء الصور التى قدمها لأصدقاء وأعداء هذه الأحزاب ومن بينها صورة التنظيمات " الحديدية " التي تتميز بوحدة الهدف وتماسك القيادة نرى عشرات من قصص الصراع الإنسانى التى ظلت فى الكتمان أو حبيسة حيث امتزجت الدراما الإنسانية وتشابكت خيوطها . ونكتشف أن مشكلة " الحرس القديم " الذى ظل مسيطراً على قيادة تلك الأحزاب حتي يبلغ من العمر أرذله ويتمكن منه المرض إلى حد العجز ليست قاصرة على الحزب الشيوعى السوفيتى وأن تلك الأحزاب عانت ـ تحديداً ـ من صراعات تجديد القيادة بين " الحرس القديم " وشباب الحزب أو الجيل المهدور فى الأحزاب الشيوعية الأوروبية .

وقد رأيت ـ كمترجم ـ لهذه المذكرات أن أعدها للنشر بطريقة مغايرة لترتيب فصولها فى الكتاب الأصلى كى يسهل على القارئ متابعة أحداثها والإمساك بخيوط الدراما الإنسانية والسياسية فيها . وقمت باستبعاد بعض الذكريات الخاصة بشخصيات من الصف الثانى بالقيادة السوفيتية والتى لا تهم القارئ العربى بل وقد تشتت انتباهه عن الخيوط والمسارات الرئيسية لأحداث تلك المذكرات .

إن مذكرات " شازوف " تطرح فى إطار إنسانى بديع الكثير من القضايا السياسية والخلافية التى تحتاج إلى تفكير وتأمل دقيق لأنها تطرح واقع الأنظمة الشمولية من الداخل بكل جرأة ووضوح .

إننا نعيش فيها أجواء الصراع على قمة هرم السلطة فى الاتحاد السابق ، ذلك الصراع ذى الحسابات المعقدة والمتعددة والتى كان من الممكن أن تغير من أقدار العالم لو تحققت .

وتتشابك خيوط المرض والصحة بدهاليز السياسية والمؤتمرات والاتفاقات الجانبية فى إطار نسيج درامى مثير يحكى لنا عن قصة الصراع الأزلى على السلطة .

وتبدو حكايات الطبيب " شازوف " كأنها قادمة من بعيد ولكنها قريبة جداً لنا ، تذكرنا بأساطير " ألف ليلة وليلة " . إنها قصة الأعوام

الأخيرة للنظام السوفيتى قبل الانهيار الكبير ولكنه يرويها من داخل حرم الكريملين فى سرد رائع مشوق ٠

المترجـــــم

١٩٩٣/١/٦

الفصل الأول

لحوم بشرية جاهزة للطبخ .. فى جناح بوكاسا

* أنا وقرار بريجنيف
* فى مطبخ الامبراطور بوكاسا
* لا تعط السلطة لإمرأة وإلا تحولت إلى طاغية
* مشاهير الأطباء الروس يرفضون الذهاب إلي منغوليا

*** من أنا اذن ؟**

- انا مجرد طبيب وعالم اكاديمى وجد نفسه فى خضم أحداث سياسية ساقه القدر إليها أو دفعته إرادة الله للخوض فيها . وفى بداية عام ١٩٦٧ اختارنى ليونيد بريچينيف السكرتير العام للحزب الشيوعى السوڤيتى كى أتولى رئاسة الإدارة الرابعة بوزارة الصحة وهى الإدارة المختصة برعاية صحة الزعماء الحزبيين وكبار رجال الدولة فضلاً عن رجال السياسة الأجانب من أصدقائنا ورفاقنا .

حينئذ كنت قد بلغت من العمر ٣٧ عاماً .. لكن أبحاثى وخبرتى العملية فى علاج مرض الذبحة الصدرية واحتشاء عضلة القلب " موت جزء من العضلة " وتجلط الدم بالشرايين التاجية جعلت منى طبيباً مشهوراً فى كافة أنحاء العالم .

وشاءت المصادفات أن يكون قرار بريچينيف باختيارى لرئاسة الإدارة الرابعة له علاقة بالسياسة ، كان بريچينيف يحتاج إلى شخص ، يثق ببعده عن الصراعات الدائرة آنذاك بين مجموعته ومجموعة شلبين .

وكان للرجل المطلوب لهذه المهمة صفات ضرورية .. أهمها الكتمان والقدرة على حفظ أسرار قيادة الدولة والمحيطين بهم

صورا من خيال تناسب أفلام الرعب والجاسوسية ..

وعلى سبيل المثال أكدت مجلة " ريدرز دايجست " الأميركية واسعة الانتشار فى أحد اعدادها اننى من أهم المسؤولين فى الـ "كي جي بي " جهاز المخابرات السوفييتى واثناء زيارتى لمدينة السينما الأميركية فى هوليوود عام ١٩٨٤ اقترح على بعض اساطين هذه الصناعة ان اقوم بتصوير فيلم بحيث اظهر فيه شخصا قريبا من الزعيم السوفييتى الاسبق بريجنيف ولكنه يعارض إرادته فى الوقت ذاته فيصبح من أشهر المناضلين من أجل السلم العالمى .

وفى العام ذاته ـ أى عام ١٩٨٤ ـ صدرت فى نيويورك رواية بأسم " الميدان الاحمر " وهى ضمن الكتب التى تحقق أفضل مبيعات أو المسماة بالكتب الشعبية التى توزع نسخا بالملايين .. وفى " الميدان الاحمر " هذا جعلوا منى رجلا فوضه بريجينيف للتحقيق فى ملابسات انتحار وبفعل " الخيال الجامح " مؤامرة قتل حيكت للتخلص منه .

*** من أنا اذن ؟**

ـ انا مجرد طبيب وعالم اكاديمى وجد نفسه فى خضم أحداث سياسية ساقه القدر إليها أو دفعته إرادة الله للخوض فيها . وفى بداية عام ١٩٦٧ اختارنى ليونيد بريچينيف السكرتير العام للحزب الشيوعى السوڤيتى كى أتولى رئاسة الإدارة الرابعة بوزارة الصحة وهى الإدارة المختصة برعاية صحة الزعماء الحزبيين وكبار رجال الدولة فضلاً عن رجال السياسة الأجانب من أصدقائنا ورفاقنا .

حينئذ كنت قد بلغت من العمر ٣٧ عاماً .. لكن أبحاثى وخبرتى العملية فى علاج مرض الذبحة الصدرية واحتشاء عضلة القلب " موت جزء من العضلة " وتجلط الدم بالشرايين التاجية جعلت منى طبيباً مشهوراً فى كافة أنحاء العالم .

وشاءت المصادفات أن يكون قرار بريچينيف باختيارى لرئاسة الإدارة الرابعة له علاقة بالسياسة ، كان بريچينيف يحتاج إلى شخص ، يثق ببعده عن الصراعات الدائرة آنذاك بين مجموعته ومجموعة شلبين .

وكان للرجل المطلوب لهذه المهمة صفات ضرورية .. أهمها الكتمان والقدرة على حفظ أسرار قيادة الدولة والمحيطين بهم

وأحوالهم الصحية .

وأخطر من ذلك الأسرار المتعلقة بمستقبل الحالة الصحية لهؤلاء الرجال .. وهى أسرار قد تتحول إلى سلاح خطير فى الصراع على السلطة فى لحظة معينة .

فى مطبخ الإمبراطور بوكاسا

ومن بين الطرائف التى واجهتها خلال فترة عملى بالإدارة الرابعة بوزارة الصحة السوفيتية قصة جين بيديل بوكاسا تلك الشخصية الأفريقية المثيرة منذ أن استولى على السلطة فى جمهورية وسط أفريقيا بانقلاب عسكرى عام ١٩٦٥ وأعلن نفسه فى وقت لاحق إمبراطوراً على بلاده عام ١٩٧٦ وحتى الإطاحة به بانقلاب عسكرى آخر قاده ابن عمه ديفيد داكو .

وحتى هذه اللحظة لا أعرف كيف عثرت أجهزة الخارجية السوفيتية على بوكاسا الرئيس الثورى والإمبراطور فيما بعد .ولكن تبقى حقيقة أن المسؤولين بالخارجية علموا بأن الرئيس بوكاسا يعانى من مـــرض ما فى الجهاز الهضمى وقاموا بدعوته للعلاج فى موسكو .. وكان بوكاسا آنذاك هو رئيس الحزب الثورى الحاكم

لجمهورية أفريقيا الوسطى .. وطلب مسؤولو الخارجية منا إعداد استقبال على أرفع مستوى للضيف الأفريقى وتأمين علاج ممتاز له .

وللحق كان بوكاسا يبدو كإنسان مهذب يبتسم دائماً ، ودائماً يبادرك بالاعتذار وكلمات الأسف والكلمات الرقيقة .

وبعد أن أجريت فحوصاً لبوكاسا بالاشتراك مع البروفسور سماجين المختص بأمراض الجهاز الهضمى قررنا أنه لا يعانى من أى مرض خطير وأنه يعانى فقط من التهاب بسيط بالقولون والتهاب عادى آخر فى غدة المرارة .

وضعنا نظام علاج لبوكاسا وأوصيناه باتباع نظام غذائى معين .. وذهبنا عائدين إلى بيوتنا بعد أن تركنا المستشفى .. فقد كنا فى يوم الأحد يوم العطلة .. ولكننى عندما وصلت إلى البيت لم يمهلنى رنين جرس التليفون أن ألتقط أنفاسى وطلب منى الطبيب المناوب بالمستشفى أن أعود على الفور .

وخلال ثلاثين دقيقة كنت فى المستشفى ومثل هذا الموقف اعتدت أن يفاجئنى فى عملى بين حين وآخر .

وكانت المفاجـأة هذه المرة فى المطبخ وكان بها وقع الصدمة على العاملين بالمستشفى .

كان بوكاسا قد أحضر معه ضمن أطعمته المعتادة ثعابين وحيات صغيرة وسحالى وأبراص وقطعــاً من اللحم القذر غير معروف المصدر .

وحتى تلك اللحظة لم نكن نعرف أن بوكاسا من أكلة لحوم البشر .. وعلى الفور صعدت إلى جناحه وقلت له فى حزم : إننا سنعالجه هنا بطرقنا الخاصة ، وأن اتباع النظام الغذائى الموضوع له لا يقل أهمية عن تناول العقاقير الطبية الموصوفة له .

ولم يعترض بوكاسا كثيراً .. ووافقنى على ما قلته .. وأعطيت أوامرى بإلقاء ما أحضره معه فى صناديق القمامة .

وخلال عشرة أيام تحسنت صحة بوكاسا وأعجبه العلاج ونظام الغذاء .. وحين غادر المستشفى طلب من موظف الخارجية أن يأخذ معه إلى بلده طبيباً وطباخاً روسيين .

وبدورها طلبت منى وزارة الخارجية السوفيتية تأمين طلب بوكاسا وبعثت إليه بالطبيب يازوف وبطباخ خاص .. ولكن إقامة الطبيب والطباخ الخاص لم تدم كثيراً فى أفريقيا الوسطى .. ويبدو أن بوكاسا كان متضايقاً من التدخلات الدائمة لطبيبنا فى مسار حياته الخاصة للحفاظ على صحته أو أنه لم يحصل على ما أراده منه .

بعد ثلاثة شهور فقط عاد الطبيب الروسى بعد أن ألغى بوكاسا عقد عمل الطبيب بحجة أنه حاول إجبار أحد رجال حراسته على ممارسة " الشذوذ الجنسى " معه .

وكان كافياً لتقتنع بمدى كذب وتهافت ادعاءات بوكاسا أن ترى طبيباً نحيفاً ومثقفاً وطاعناً فى السن متهماً بمحاولة اغتصاب شرطى ضخم الجثة .

حاول بوكاسا أن يتخلص من شهود على جرائمه حتى لا يضايقونه فى ممارســة عاداته ولتبقى شهيته مفتوحة لمزيد من الضحايا والأطفال .

وعندما قرأت بعد ذلك فى الصحف أن بوكاسا أحد أشهر سفاحى أفريقيا وأنه آكل لحوم البشر لم يكن ذلك يدهشنى

لا تعط السلطة لامرأة روسية

وهناك قصة أخرى تكشف إلى أى مدى يذهب دور الطب بعيداً فى عالم السياسة وتحديداً فى أغسطس ١٩٨٤ وقفت أمام المكتب السياسى لحزب الشعب الثورى فى منغوليا لأشرح لأعضائه أن تسدينبال زعيم منغوليا لا يستطيع الاستمرار فى قيادة البلاد بسبب

مرضه .

كانت تلك تجربة صعبة على حياة العمل السياسى وعلى مستوى علاقة طبيب ومريضه أيضاً .. كنت قد عرفت الرجل منذ ١٧ عاماً .. وكما حدث تماماً مع بريچينيف كان تسدينبال فى نهاية الستينيات وبداية السبعينيات رجلاً مفكراً ونشيطاً ويتسم بالمبادرة والحيوية بارعاً فى العمل السياسى .

وفى بداية الثمانينيات اختفى تسدينبال الأول وظهر تسدينبال ثان تدهورت شخصيته بفعل تصلب الشرايين وإدمان الكحول .

وعلاوة على ذلك كان على تسدينبال التعس أن يتحمل حياه زوجية غير سعيدة .. ففى شبابه ارتبط تسدينبال بفتاه روسية وتزوجها وللأسف وقع الرجل بطبيعته الطيبة ورغم ثقافته الرفيعة تحت تأثير زوجة ليست على قدر كاف من الذكاء وذات تصرفات طائشة .

لا تعط السلطة إلى امرأة وإلا تحولت إلى طاغية

وتقول إحدى العبارات المأثورة فى بلادنا : (لا تعط السلطة كلها إلى امرأة روسية وإلا تحولت إلى طاغية) .

وكانت زوجة تسدينبال زعيم الحزب ورئيس دولة منغوليا من هذا النوع تماماً وأصبحت خطراً داهماً على المكتب السياسى للحزب وعلى الحكومة فى بلادها .

ولقد أتيحت لى الفرصة أن أكون حاضراً وشاهداً على تصرفاتها ومناقشاتها مع زعماء منغوليا .. وكم كنت خجلاً من تصرفات تلك المرأة التى لطخت سمعة بلادنا لأنـــه حينئذ كان الناس ينظرون إلى زوجة تسدينبال وكأنها تعنى لهم الاتحاد السوفيتى .

وحتى عام ١٩٧٢ استطاعت تلك المرأة أن تكبح جماح غضبها وتسلطها بفضل وجود رجل مثل (سامبو) على رأس المؤتمر الشعبى لمنغوليا (البرلمان) .

ولقد عرفنا هذا الرجل منذ أن كان سفيراً لبلاده فى موسكو أثناء حكم ستالين ، وعاش نموذجاً للمبدئية والصفات الحميدة حتى شيخوخته .. وظل محتفظاً (بغليونه) بين أسنانه طوال تلك السنين .. هذا (الغليون) الذى أدى به إلى سرطان الرئة قبل أن يموت .

وبموت سامبو اختفت من أمام تلك المرأة أى قيود تكبح جماحها .

ولما كانت الإدارة الرابعة لوزارة الصحة السوفيتية هى المسؤولة عن متابعة صحة تسادينبال فقد أصبحت الإدارة والعاملون بها عرضة

للإصطدام بالطغيان الذى يتحكم فى العائلة .. ولأن غالبية الأطباء لم يجدوا لغة مشتركة للتفاهم مع ربة الأسرة فإن أطباء عائلة تسدينبال كانوا دائمى التغير والتبدل .. ووصلت الأمور إلى حد أن أفضل أطبائنا باتوا يفضلون الاستقالة على السفر إلى منغوليا .

وأذكر أننى تدخلت لدى بريچينيف ويورى أندروبوف والأخير كلن رئيساً للمخابرات (كى چى بى) لإنقاذ البروفسير لوفان أشهر أطبائنا فى الوخز بالإبر الصينية من بطش عائلة تسدينبال لقد شاهدت بعينى هذا الرجل الوقور وهو يبكى أمامى بعد أن تلقى تكليفــاً بالذهاب إلى منغوليا كان الرجل يخشى بطش زوجة تسدينبال .

تحدثت كثيراً مع بريچينيف وأندروبوف عن تصرفات زوجة تسدينبال واضطرابها النفسى وأثر ذلك فى تزايد السخط بين أوساط شعب منغوليا بدعوى مخاطر قيام الصين بتوسيع نفوذها هناك على حسابنا .

والغريب أن بريچينيف قال لى بعد زيارة قام بها لمنغوليا قوبل خلالها بحفاوة جماهيرية جــرى إعدادها سلفاً لتعبر عن حب الشعب للقيادة السوڤيتية والمنغولية قال :

هل ترى كيف يحب هذا الشعب زوجة رئيسه الروسية الجنسية .. لقد فعلت تلك السيدة الكثير من أجلهم ومن أجل الارتقاء بالثقافة والفـــن والتعليم .. من الآن فصاعداً لا تستمع إلى شائعات المغرضين .

وحتى بعد وفاة بريچينيف استمرت سياسة " دفن الرؤوس فى الرمال " وأدت تلك السياسة إلى توتر بالغ فى منغوليا .

ومع تدهور الحالة الصحية لتسدينبال بفعل تصلب شرايين المخ بدأ الرجل يفقد ذاكرته .. وتزايد تدخل زوجته فى إدارة شؤون الدولة .. وكانت موسكو على علم بذلك من خلال تقارير سفيرنا فى منغوليا .

ورغم ازدياد التذمر والسخط فى منغوليا فإن أحداً من أجهزتها القيادية لم يجرؤ ويطرح موضوع إعفاء الرئيس المنغولى من زعامته للحزب والبلاد .

عاصفة منغولية

وفى صيف عام ١٩٨٤ ذهب تسدينبال لإجراء بعض الفحوص الطبية .. وأظهرت صور الأشعة المقطعية بوضوح أثر تصلب

الشرايين على أنسجة المخ .. ولم يكن لدينا أدنى شك فى انعدام قدرة الرجل على العمل وأخبرنا زوجته وزعامة حزب الشعب الثورى المنغولى واللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى .. ولكن الزوجة ظلت تطلق تحذيراتها وتهديداتها بأن الشعب والجيش والمخابرات فى منغوليا لن يسمحوا بإغضاب تسدينبال وإقصائه عن السلطة .

وفى وقت لاحق اتصل بى الرئيس السابق ميخائيل غورباتشوف تليفونياً وطلب منى حضور اجتماع مع بعض أعضاء المكتب السياسى لحزب الشعب الثورى المنغولى فى مقر اللجنة المركزية بموسكو .

وكان الاجتماع مخصصاً للبحث فى مخرج من المأزق الحرج .. حضره تشربيكوف رئيس المخابرات (كى چى بى) حينئذ وروساكوف المسؤول عن العلاقات مع الدول الاشتراكية .

وبعد أن تحدث غورباتشوف عن الوضع فى منغوليا بصفة عامة طلب منى التحدث عن الحالة الصحية للزعيم المنغولى .. كانت الحالة واضحة لدرجة لا تحتمل الجدل ، إلا أن أحد الرفاق المنغوليين رفض تماماً أى كلام عن إعفاء تسدينبال من منصبه .

وفى نهاية الاجتماع العصيب قال المسؤولون المنغوليون لنا : "يمكن أن نجمع المكتب السياسى لحزبنا فى منغوليا لتتحدثوا عن مرض تسدينبال وتعلنوا بأنفسكم أن الحالة الصحية لا تسمح له بقيادة البلاد " .. إلا أن القيادة السوفيتية اقترحت بالمقابل إعطاء تقرير طبى مكتوب يوضح حالة الزعيم المنغولى المتدهورة .

ولكن المنغوليين أصروا على أن يجرى اجتماع أولان باتور عاصمة منغوليا وعلى حضورى شخصياً لهذا الاجتماع .

ووافقت على الذهاب حيث لم يكن من ذلك بد ، إلا أن الرفاق المنغوليين المجتمعين معنا طالبوا بشرط آخر وهو بقاء تسدينبال وزوجته فى موسكو حتى يتم الاجتماع .

ودارت تساؤلات فى ذهنى : ممن يخافون ؟ من الشعب أو الجيش أو أجهزة الأمن أو المخابرات المنغولية ؟ ربما كانوا متخوفين آنذاك من زوجة تسدينبال .

وعلى أى حال فمن الطبيعى أن يستند الزعيم المنغولى وعائلته على أعضاء المكتب السياسى للحزب .. وكل هؤلاء يصعب التكهن بردود فعلهم فى حالة وجود عائلة تسدينبال فى أولان باتور لحظة مناقشة وإعلان إقصائه " لاعتبارات صحية " .

سر فراء الثعالب المنغولى

ووصلت إلى أولان باتور العاصمة المنغولية وسط أجواء متوترة .. فقد تسربت أنباء ما دار فى اجتماع موسكو إلى المستشفى الذى ظل الزعيم المنغولى وزوجته محتجزين فيه وعلاوة على تلك الأنباء وصلت تهديدات أطلقتها زوجة الزعيم بأنه لا يمكن التخلص من زوجها المريض بسهولة .

أما الزعيم المنغولى نفسه فقد كان فى حالة صحية وذهنية لا تسمح له بإدراك ما يجرى حوله .. وكان مجرد السماح له بحضور اجتماع المكتب السياسى فى أولان باتور جريمة طبية فى حق إنسان حى .

ولن أنسى التعبير الذى كان بادياً على وجوه المسؤولين السوفييت الذين ودعونا فى المطار بموسكو قبيل توجهنا إلى أولان باتور .

كان مفهوماً لدى الجميع أننى أحمل على عاتقى مهمة صعبة هى إزاحة زعيم سياسى ظل يحكم بلاده لمدة ٢٥ عاماً ، إزاحة لا تسفر عن أية انفعالات سياسية ، ولكننى مع ذلك لم أكن متوتراً أو قلقاً وغير متردد إطلاقاً فى إبلاغ القرار إلى القيادة المنغولية .

وخيم صمت ثقيل فى بداية الاجتماع المرتقب للمكتب السياسى

لحزب الشعب الثورى الذى رأسه باتمونج ، وهو اجتماع لم يعلن عن جدول أعماله .. وأعطانى باتمونج الكلمة قائلاً :

سوف يحدثكم البروفسير شازوف عن الحالة الصحية للرفيق تسدينبال . وفى تلك الساعة شعرت بنفسى كقطعة من البللور في الشفافية بينما أخذ جميع الحضور حول مائدة الاجتماعات الكبيرة ينظرون إلى بانتباه .. كانوا ينظرون ما سأقوله وكل فرد منهم يدرك أنه فى تلك اللحظة الهامة سيتحدد مصير رئاسة البلاد ومصير كل واحد منهم مستقبله السياسى .

وأخذت فى سرد تفصيلى لتاريخ المرض وأسباب حدوثه واستعرضت أمامهم التقارير والأدلة والمعلومات العلمية .. وعرضت عليهم صور الأشعة المقطعية " لمخ " تسدينبال مقارنة بأشعة مقطعية أخرى لإنسان عادى .. عندما رأوا بأنفسهم الفروق الواضحة بين الصورتين لم يكن أمام الرفاق المنغوليين أى مجال للمجادلة إلى حد أن أياً منهم لم يوجه سؤالاً واحداً.

كان ما قلته جديداً عليهم رغم ما ظلوا يلاحظونه على مدى سنوات بأنفسهم من فقد تسدينبال لذاكرته وقدرته على العمل تدريجياً فقد كان يعوزهم الدليل علي ذلك والدافع كى يعفوه عن

العمل ويقصوه عن منصبه دون خرق " للروح الرفاقية " .

وهكذا لم يكن أمام المسؤولين فى منغوليا سوى خيار واحد هو إعفاء تسدينبال بهدوء تام وسط دهشة الكثيرين وعلى العكس المخاوف التى راجت من قبل فى موسكو وأولان باتور عن احتمالات حدوث أزمة ومظاهر للتوتر الشديد .

وعند عودتى من منغوليا استقبلنى فى المطار بموسكو عدد من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى واستمعت إلى عبارات مديح وإطراء وقال لى أحدهم : أن مثل هذا العمل الذى قمت به يستحق وساماً رفيعاً وسنهديك اليوم بهذه المناسبة قلم حبر نادر للذكرى .

وكان هذا القلم من فروة ثعلب منغولى نادر .

الفصل الثانى

هـل مـات بومديـن مسمـومـاً ؟!

* كوسيغن طلب أن يغادر الرئيس الجزائرى موسكو ليموت فى بلاده .

* الأسباب المعروفة لوفاة الزعيم الجزائرى غير صحيحة .

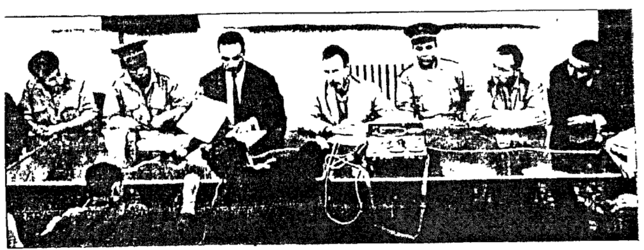
* أزمة جزائرية سوفيتية بسبب علاج بومدين .

* المخابرات السوفيتية تولت حماية الأطباء الروس فى الجزائر .

* " سرطان الحنجرة " وراء اختفاء يوثانت من الأمم المتحدة وخطة سرية للكشف الطبي عليه بعيذاً عن عيون الأمريكان



□ بومدين



□ بومدين في اجتماع قيادي في اغسطس ١٩٦٢

واجه نشاط الإدارة الرابعة التابعة لوزارة الصحة السوفيتية الصعيد الدولى إحباطات سعت دوائر معينة فى الشرق أو الغرب للاستفادة منها لتحقيق أهدافها السيلسية .

ولقد بدت فى بعض الأحداث غريبة رغم أننى خُبرت خلال عملى كافة النوازع الأنانية والشريرة للزعماء السياسيين وصراعات المصالح القومية بين الدول المتنازعة .

وكانت قصة ما حدث لرحلة علاج الرئيس الجزائرى الأسبق هوارى بومدين واحدة من هذه الإحباطات والأحداث الغريبة التى تكشف عن " اللاأخلاقية " التى تنطوى عليها الصراعات السياسية أحياناً .. وكانت قمة المأساة فى محاولة استغلال مرض واحتضار زعيم عربى كبير من أجل غايات سياسية خسيسة ولزعزعة الثقة بيننا وبين

الجزائريين وبث الكراهية من خلال التشكيك فى الطب الروسى .

تبدأ القصة فى أيام شهر سبتمبر الملبد بالغيوم فى عام ١٩٧٨ .

اتصل بى الكسى كوسيغين رئيس الوزراء السوفيتى آنذاك .

وقال لى بينما جاء صوته مضطرباً عبر الهاتف : " لقد وصلتنى للتو برقية تلغراف من الجزائر تخبرنا بأن الرئيس هوارى بومدين قد استقل الطائرة صباح اليوم إلى موسكو للعلاج " .

واضاف كوسيغين وفى نبرة صوته الدهشة : الغريب أن هذا الطلب جاء مفاجئاً إذ لم تطلب الجزائر من قبل تنظيم رحلة علاج لبومدين " وسألنى كوسيغين " : ربما تعرف شيئاً عن هذا الموضوع .. وأجبته : (إننى مثله تماماً اسمع بالنبأ للمرة الأولى) .

واتذكر أن كوسيغين أضاف قائلاً فى المكالمة الهاتفية ذاتها : (يبدو أن شيئاً غير طبيعى قد حدث) .. وأشار إلى أنه من غير المستبعد أن يكون بومدين مريضاً وأن يكون المسئولون فى الجزائر قد حاولوا إخفاء طبيعة مرض زعيمهم كما يحدث فى البلاد العربية عادة وأن دبلوماسيينا فى الجزائر لم يتابعوا الموقف جيداً ليعرفوا ماذا يحدث) .

وانتهت مكالمة كوسيفين بتكليفى باستقبال بومدين لدى هبوطه فى المطار ونقله للعلاج فوراً

واقترح رئيس الوزراء مستشفى شارع ميتشورنسكى فى موسكو حيث القليل من المرضى مما يمكننا من الحفاظ على سرية رحلة الرئيس الجزائرى وإخفاء شخصيته

ولسوء حظ الأطباء الروس بدا وكأن الرئيس بومدين ذهب إلى الاتحاد السوفييتى فى صحة طيبة أو على أسوأ تقدير مصاباً بمرض خفيف وبعد شهرين عاد إلى بلاده فى حالة خطيرة تصحبه مجموعة من الأطباء السوفييت

ولكن الذين روجوا لهذا التصور لم يسألوا أنفسهم لماذا اضطر بومدين لقطع آلاف الأميال بطائرته للعلاج فى الاتحاد السوفيتى ؟ وهل كانت تلك الرحلة المضنية لمجرد الاستشفاء من مرض بسيط كالزكام مثلاً .. وألم يكن باستطاعة الرجل حينئذ أن يستريح فى منزله لبضعة أيام .

رحلة غير موفقة

بالطبع كانت الأمور أخطر من ذلك بكثير فبعد رحلة للرئيس الجزائرى فى دول الشرق الأوسط ظهرت فجأة عليه أعراض حمى وارتفاع فى درجة الحرارة لم تتمكن الأدوية العادية من التغلب عليها .. وبدأت حالته في التدهور وأصر بومدين نفسه على التوجه إلى الاتحاد السوفيتى فى رحلة عاجلة .

وبعد إجراء الفحوص الأولية لم يعد لدينا أدنى شك فى أن الرئيس الجزائرى يعانى من مرض شديد قد يكون ذا طبيعة فيروسية وتمثلت مضاعفات المرض فى التهاب وتسمم الكبد .

وبعد أن بدأنا العلاج بدا للوهلة الأولى وكأن حدة المرض تتراجع وبدأت أعراض وعلامات التهاب الكبد فى الاختفاء .

ولكن قلقنا استمر .. جسد الرئيس الجزائرى لم يتخلص بعد من هزاله .. ودرجة حرارته تعاود تسجيل ارتفاع طفيف . وكرات الدم البيضـــاء تتزايد هى الأخرى وإن كان ذلك ليس تزايداً شديد الارتفاع .

ولاحظنا تغيرات مرتبطة باختلال جهاز المناعة فى جسد الزعيم الجزائرى وظهر ذلك الاختلال بصورة واضحة على مادة "الجلوبيولين"

الطرفية ..

وللأسف فإن هذا الفرع من علوم الطب الحديثة ما يزال الكثير من جوانبه غامضاً .. وحتى الآن فإننا لا نملك إلا معرفة القليل عن أسرار تحول جهاز المناعة لدى الإنسان من صديق يدافع عن جسده إلى عدو غادر يودى بحياته .

على ضوء تشخيص حالة بومدين لا نستبعد أن تكون التغيرات التى طرأت على جهاز المناعة نتيجة تعرض الرئيس الجزائرى لعوامل خارجية وقد تكون تلك العوامل ذات طبيعة جرثومية أو بسبب التسمم " بمواد سمية " معينة .. وما حدث مع بومدين يكشف خطورة اختلال جهاز المناعة فى الإنسان فالأمر لا يقتصر على ضعف وانهيار وظائف الدفاع عن الجسم بل يمتد إلى ظهور التهابات شاملة وعامة بالأوعية الدموية .. وهذا بدوره يؤدى إلى ظهور " جلطات صغيرة " وأكثر من نزيف فى الأوعية الدموية وهذا هو ما حدث للرئيس الجزائرى .

وأكتفى بذلك .. فالخوض فى مزيد من التفاصيل العلمية بشأن هذا المرض مسألة قد يصعب على الأطباء أنفسهم متابعتها فما بالك بالقارىء غير المتخصص . وعلى أية حال فإن جوانب الخلاف فى

تشخيص حالة الرئيس بومدين قد نشرناها فى دوريات طبية متخصصة .

ولقد شارك فى التوصل إلى تشخيص حالة بومدين ووضع نظام العلاج لها أفضل الأطباء السوفييت وجرت جميع المداولات والمشاورات فى حضور الزملاء من الأطباء الجزائريين كما كانت زوجة الرئيس الجزائرى تتابع الموقف أولاً بأول حيث وصلت معه على الطائرة ذاتها .. وأتذكر كذلك أننا لجأنا إلى طريقة حديثة للعلاج تدعى " بلازما فورسيس " كسلاح لمواجهة تراكم المواد الضارة فى الدم بعد أن تجادلنا وتشاورنا باستفاضة .

ولكن شبح رحيل بومدين فى أية لحظة بسبب نزيف فى المخ أو "احتشاء القلب" أو تغيرات خطيرة تصيب الرئتين كان ماثلاً أمامنا بقوة .

ومن جانبى حذرت القيادة السوفيتية من وقوع هذا الاحتمال .. وجاء رد ألكسى كوسيغن رئيس الوزراء سريعاً : من الأفضل الاستمرار فى العلاج بالجزائر ويمكننا أن نبعث بأفضل الأطباء والعقاقير والأجهزة اللازمة إلى هناك لأن رحيل بومدين وهو فوق أراضى الاتحاد السوفييتى من شأنه أن يحدث ردود فعل سلبية فى

الجزائر وفى العالم العربى وقد يضيف المزيد إلى أوضاع غاية فى التعقيد بين موسكو والدول العربية " .

ولحسن الحظ كانت جهة نظر الرئيس بومدين نفسه مطابقة لرأى الزعامة السوفيتية ولقد أدرك بومدين أن غيابه عن وطنه وتزايد الأقاويل حول مرضه العضال داخل الجزائر قد يؤدى إلى عواقب غير مأمونة .. كما أن زوجته شجعت قراه بالعودة إلى الجزائر . واشترط علينا بومدين قبل العودة أن يصحبه فريق من الأخصائيين السوفييت وأن يبقى الفريق فى الجزائر لمواصلة العلا وهو ما وافقنا عليه .

ولن أنسى لحظات وداع بومدين لدى اقلاع طائرته من الاتحاد السوفيتى كان لتلك اللحظات تأثير خاص فى نفسى .. كنت على استعداد لعمل كل شىء وأى شىء من أجل هذا الرجل الذى جمعتنى به أواصر صداقة وتعاطف مع آلامه نمت بقوة أثناء العلاج إلا إننى فى الوقت نفس كنت على وعى بعجز الطب أمام حالته الخطيرة .

وكان بومدين كذلك متعكر المزاج فى هذه اللحظات ، لحظات وداعه فى الاتحاد السوفييتى .

مأزق فى الجزائر

وسافر بومدين يصحبه فى الطائرة مجموعة من كبار أساتذة الطب السوفييت .. وبعد فترة قصيرة وصلتنا من سفارتنا فى الجزائر أنباء مقلقة عن الروح العدائية التى تحيط بالأطباء السوفييت والتى قد تصل إلى حد تهديد حياتهم .. وازداد الوضع حرجاً مع ظهور أعراض اختلال الدورة الدموية فى المخ التى بدأت عقب عودة بومدين إلى الجزائر .

وقامت زوجة بومدين والمحيطون به بدعوة عدد كبير من أخصائيى دول عديدة وجاء أطباء من فرنسا والولايات المتحددة وبريطانيا وكوبا .. وكان الموقف صعباً بالنسبة للأطباء السوفييت فلقد حاول بعض ممثلى الطب الغربى خصوصاً الفرنسيون أن يسفهوا التشخيص الذى توصلنا إليه والعلاج الذى وصفناه فى موسكو .

وقال لى الدكتور سورا : كانت المناقشات فى " الكونصلتو " الدولى حامية الوطيس . ولكن أحداً من السادة الأطباء لم يقترح أية إضافة جدية لنظام العلاج الذى كنا قد وضعناه فى موسكو .

ومع أن غالبية الأطباء المشاركين فى " الكونصلتو " انتهوا إلى تأييد طبيعة المرض الذى توصلنا إليه ونظام العلاج المتبع فقد ازدادت

الأجواء التى تحيط بأطبائنا السوفييت فى الجزائر تعقيداً وتوتراً .. وطلبت من يورى أندروبوف رئيس المخابرات السوفيتية "كى چى بى" حينئذ تأمين سلامة أطبائنا خاصة فى حالة وفاة بومدين .

ولكن تبقى حقيقة أن الأطباء السوفييت هم الذين ظلوا وحدهم إلى جـــوار فراش مرض الرئيس بومدين حتى الدقائق الأخيرة من حياته .

وكما توقعنا من قبل حدث نزيف متكرر يصيب المخ وآخر دموى فى الرئتين .. وكان ذلك هو السبب المباشر لوفاة بومدين .. وخسر الطب معركته أمام المرض .

وانتابتنى لحظة وفاة بومدين ولا يزال إلى الحين إحساس دقيق بأن أسباباً تم إخفاؤها عن أعيننا كأطباء هى التى تكمن وراء موت بومدين .. وهنا أترك للقارىء أن يفهم بنفسه ما بين السطور .

ومع كل ما تعرض له الأطباء السوفييت من دعايات مضادة حاولت التشكيك فى كفاءتهم ونزاهة مقصدهم فإن القيادة الجزائرية وكثيراً من المواطنين العاديين فى الجزائر كانوا على وعى بأننا فعلنا كل ما فى وسعنا لإنقاذ حياة رئيسهم .

وهذا ما أكدته الأيام اللاحقة عقب النهاية المأساوية للرئيس

بومدين فقد تلقى العديد من الأساتذة والأخصائيين فى الطب السوفييتى الدعوة لزيارة الجزائر .

تلغراف غامض من يوثانت

ومن المواقف المثيرة والدرامية التى وجدت نفسى فى خضمها هذه القصة التى ظلت طى الكتمان إلى الآن .

وتبدأ القصة بتلغراف وصل وزارة الخاجية السوفييتية من يعقوب مالك مندوبنا فى الأمم المتحدة فى أوائل السبعينيات .. ولقد كان مقرراً أن أسافر أنا والأكاديمى السوفييتى لوكومسكى لزيارة عدد من المراكز الطبية فى الولايات المتحدة عام ١٩٧١ حين جاءت تلك البرقية وكنا نتأهب للسفر .. وتضمنت البرقية العاجلة التى أطلعنى عليها أندريه غروميكو وزير الخارجية فى ذلك الوقت أن يوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة يطلب سراً استشارة الأطباء السوفييت . لماذا ؟ ولأى سبب ؟ وما هو التشخيص المبدئى للمرض أو أعراضه .. لم تذكر البرقية أى شىء .

وكذا طلب غروميكو من لوكومسكى ومنى القيام بتلك المهمة الغامضة .

وحين وصلنا إلى نيويورك والتقينا بمالك علمنا أنه لم تكن لديه أية تفاصيل هو الآخر وأن يوثانت رفض أن يبوح بأى شىء عن طبيعة مهمتنا إلا أن مالك أحاطنا بالملابسات السياسية والدبلوماسية التى تحيط حالياً بيوثانت .

كانت فترة توليه لسكرتارية الأمم المتحدة توشك على الانتهاء وهو يتأهب لخوض معركة إعادة انتخابه بينما أبدت أكثر من دولة بينها الولايات المتحدة رغبة فى أن ترى شخصاً آخر فى منصب السكرتير العام .

وكما هى العادة قبيل الانتخابات انهمك أكثر من طرف فى مساومات ومشاورات ترضى جميع الأطراف وبالطبع كانت الحالة الصحية للمرشحين للمنصب الدولى الرفيع تحت المجهر .

وكان يمكن التكهن بأن لدى يوثانت مشاكل صحية ألحت عليه وهى مشاكل غير معروفة لنا .. ولقد كان الرجل يريد أن يقارن بين تشخيص الأطباء السوفييت وفحوص سابقة أجراها لدى الأطباء الأمريكيين ولم تكن أسباب المعركة الانتخابية التى بدأت تدور فى أروقة الأمم المتحدة تمكنه من أن يعلن عن مرضه فى التو .. وكانت الاستشارة السرية لذلك ضرورية له .

ولكن كيف جرى ذلك ؟

ـ تصادف أن حادثاً هز كل أمريكا والعالم قد وقع فى اليوم الذى استطعنا فيه العثور على مخرج لتأمين سرية الكشف الطبى على يوثانت بعد بحث مضن بين بدائل عديدة .

وشاءت الأقدار أن نكون أنا والبروفسير لوكومسكى على مقربة من الحدث .

كنا نتناول الشاى بدعوة من طبيب الوفد السوفييتى لدى الأمم المتحدة بمقر وفدنا فى المنظمة الدولية بنيويورك حين قام إرهابى بإطلاق نيران بندقية قنص على المقر .. سمعنا أصوات طلقات الرصاص التى دوت بجوارنا تماماً .. وسرت فى المكان أصوات صرخات أطفال مذعورين وأقدام تهرول .. وشاءت الأقدار أن تنجو ابنتا أحد موظفى المقر بأعجوبة .

وبعد لحظات من الحادث حضر إلى مقر بعثتنا چورچ بوش ، الذى كان فى ذلك الوقت مندوباً للولايات المتحدة فى المنظمة الدولية .. وقدم بوش الذى أصبح فى وقت لاحق رئيساً لأميركا اعتذاراً رسمياً لسفيرنا ولمن وقع عليه الاعتداء .. وكان مثل هذا الحادث أفضل حجة ليوثانت كى يزور مقر الوفد السوفييتى ، فقد وفر الحادث

مناسبة طبيعية لتنظيم اللقاء بدلاً من الخطط المعقدة التى كنا قد وضعناها سابقاً .

وفى اليوم التالى للحادث حضر يوثانت مبكراً فى زيارة رسمية لكى يعبر عن أسفه ليعقوب مالك واقترح مالك على يوثانت تناول الإفطار معه .. وعلى هذا الإفطار دعانى مالك والدكتور لوكومسكى .. واختلق مالك عذراً كى ينسحب من المائدة .. وبقينا منفردين مع السكرتير العام للأمم المتحدة .

وكان الموقف أعقد وأصعب كثيراً مما توقعنا .. كان يوثانت يعانى من إحساس غير مريح فى الحنجرة .. فذهب لإجراء فحوص عند طبيبه الأميركى ، فأخبره أخصائى الأنف والأذن والحنجرة الأميركى بأنه مصاب بورم خبيث فى حنجرته " السرطان " ولكن يوثانت شك فى تشخيص الطبيب لأنه كان يشعر بأن الأمر أقل أهمية من ذلك أنه لا يزال يتمتع بصحة جيدة .. ولذا فإنه طلب فحصاً سوفييتياً للتحقق من صحة شكوكه .

واعتذر يوثانت عن أنه لم يخبرنا مسبقاً بطبيعة شكواه الصحية وبرر ذلك بخشيته من تسرب أى معلومات أو أنباء عنه حتى لو عن طريق الدبلوماسيين السوفييت .. ولقد وضعنا يوثانت فى وضع

شديد الحساسية والحرج فأنا والدكتور لوكومسكى لسنا أخصائيين فى مجال الأنف والأذن والحنجرة .. ولكن كان علينا أن نخرج من هذا المأزق بأية طريقة .

وقررنا أن نجرى فحصاً عاماً وأن نلقى بنظرة على حنجرته واضعين فى الاعتبار رأى الطبيب المختص الأميركى وللأسف كانت صورة المرض واضحة للغاية من الفحص بالخارج حتى أنها لم تترك أية بذرة شك لدينا فى صحة تشخيص الطبيب الأميركى .

ونصحنا يوثانت أن يرجع إلى بلاده .. تلقى يوثانت الصدمة بهدوء وعينين جزعتين ولم ينس قط دماثته فشكرنا على الكشف الذى أجريناه له وأخبرنا أنه يفكر الآن فى مستقبله على نحو مختلف .

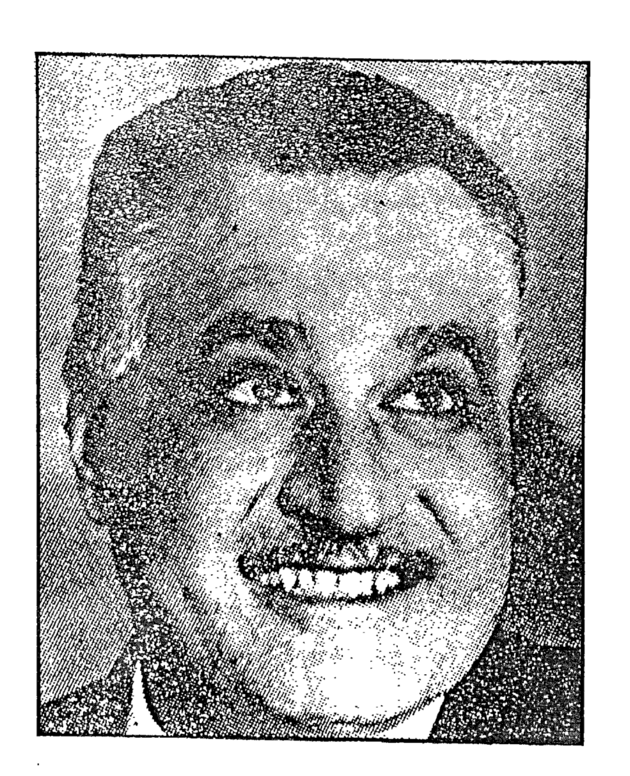
وطلب يوثانت منا أن نحافظ على سرية هذا اللقاء وألا نخبر أحداً بمرضه .. وهو ما التزمنا بتنفيذه .

وبعدها سحب يوثانت طلب ترشيحه لفترة أخرى فى منصب سكرتير عام للأمم المتحدة .. وعاد إلى بلاده . وبعد عامين من لقائنا به رحل يوثانت عن العالم .

الفصل الثالث

أسرار الرحلات السرية إلي موسكو والقاهرة

* بودغورنى لم يكن متحمساً لعلاج الرئيس المصرى
* كيف نجحنا فى " تسخالطويو : ؟!
* كيف توقف " عبد الناصر " عن التدخين .. وماذا قال ؟
* " ناصر " لم يعترض على الاستراحة المتواضعة فى "تسخالطويو "
* القاهرة تخفى مرض " عبد الناصر " وتعلن إصابته بالأنفلونزا
* لماذا استقبلنى السادات فى منزله الفخم بعد أن أصبح رئيساً ؟!



فى الأيام الأولى من يوليو ١٩٦٨ جاءنى صوت ليونيد بريچينيف السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى على التليفون .. ورغم أن بريچينيف لم يتحدث صراحة أو يكشف عن إسم المريض فإننى فهمت أن واحداً من أعز أصدقائنا الأجانب مريض للغاية ، وأن أطباء المريض المعالجين يريدون مقابلتنا والتحدث معنا بشأن حالته والحلول المتاحة لعلاجه .

وتحدث بريچينيف عن " ورم " قد تكون له علاقة بالجهاز البولى وفيما بعد قلت لنفسى على أى معلومات استند بريچينيف فى حديثه هذا .. وكان الزعيم السوفييتى السابق قد طلب فى المكالمة التليفونية ذاتها دعوة من نثق بهم من المتخصصين ثقة عمياء حتى لا يتسرب أى نبأ .. كما طلب منى ألا أتحدث مع أى كان من القيادة

السوفييتية حول نتيجة الاستشارة الطبية .

وفى اليوم التالى لاتصال بريچينيف حضر عدد من الأطباء والاختصاصيين المصريين إلى غرفة مكتبى الصغيرة فى شارع جرانوفسكي واجتمع بهم أفضل الأخصائيين السوفييت وعلى رأسهم الجراح الكبير مايات وأخصائى المسالك البولية "أبراميان" وقال لنا الأطباء المصريون أن عبد الناصر بدأ يشكو فى الفترة الأخيرة من آلام مبرحة فى قدميه ورجليه . وبدأت هذه الشكوى منذ حوالى العام عندما كان الزعيم المصرى يقوم بالمشى لمسافات طويلة .. وتكررت الشكوى فيما بعد مع المشى مسافات قصيرة .. أما الآن فقد أصبح عبد الناصر يتألم من قدميه حتى دون أن يحركهما .. ولاحظ الأطباء أن الآلام انتقل تركيزها من القدمين إلى الفخذين .. وأصبح عبد الناصر يعانى من " خدر " فى قدميه وبداية ظهور (غرغرينا) فى أصابعهما أما جلد قدميه فقد بدأ فى التغير بما يؤكد أنه غير سليم.

وكان التمثيل الغذائى الخاص بالسكريات والدهون يعانى من خلل لدى عبد الناصر كما أنه كان مدخناً شرهاً لسنوات طويلة لسجائر (كامل أو الجمل) شديدة التركيز .

ومع ذلك قال لنا الأطباء المصريون أن أياً من علامات (قصر الشرايين التاجية) لم تظهر على عبد الناصر .

وبناء على ما استمعنا إليه من الأطباء المصريين وما عرضوه علينا من نتائج فحوص وتحاليل وأشعة خرجنا بانطباع مفاده استبعاد الإصابة بأى (ورم) وأن حال المريض يتعلق بتصلب تقليدى للأوعية الدموية فى الساقين وبداية اختلال للدورة الدموية بهما .. وأبلغنا زملاءنا المصريين أنه لا يمكننا التوصل إلى تشخيص نهائى للحالة إلا بعد أن نفحص المريض بأنفسنا .

وكان المصريون يخشون تسرب أى أنباء عن مرض عبد الناصر فالموقف فى الشرق الأوسط عصيب للغاية على الرغم من حالة (اللاسلم واللاحرب) بين العرب وإسرائيل ، وكان عبد الناصر زعيماً لا ينازع لكل العرب ورمزاً لنضالهم من أجل الاستقلال والثورة .. كان حب الجماهير له بلا حدود وكان تسرب أى معلومة عن مرضه يمكن أن يلحق الضرر بجهود العرب فى مواجهة إسرائيل .. ولذا كان مفهوماً ألا يلقى اقتراحنا بفحص عبد الناصر ترحيباً من الأطباء المصريين الزائرين .. إلا أنهم طلبوا بحث الاقتراح أولاً مع المريض نفسه .

ولقد كان الرئيس عبد الناصر علي ثقة من حرص السوفييت علي سرية الفحوصات الطبية التى ستجرى له .

وفى يوم ٦ يوليو ١٩٦٨ وفى ساعة مبكرة من هذا اليوم كان أول لقاء لنا مع عبد الناصر كان المرض والهزال والقلق واضحاً على وجه الزعيم المصرى . وإلى جانب الأطباء كان معه أنور السادات .. إلا أن عبد الناصر بثقته فى نفسه وبساطته استطاع فى أقل من ١٥ دقيقة فقط أن يصنع معنا جواً من الألفة وأن يضفى جواً ودياً على اللقاء .

ولقد أحس الأطباء السوفييت سريعاً برجل لا يعرف التصنع أو التواضع الزائف طريقة إلى حديثه .. هذا التواضع الزائف الذي يظن بعض زعماء العالم أنه أحد مظاهر الديمقراطية ، ولقد كان عبد الناصر إنساناً رقيقاً ومثقفاً واسع الإطلاع .

وعندما سألنا عبد الناصر عن شكواه قال لنا بضجر أنه ظل طوال ساعات الرحلة الجوية التى استمرت خمس ساعات إلى موسكو في عذاب من آلام شديدة فى الساقين والفخذين .. حتي أنه اضطر للاستلقاء طوال الوقت على ظهره مع أنه كان مقرراً أن يعقد اجتماعاً مع كبار معاونيه فوق متن الطائرة .. وأدركنا كم أضناه

المرض وكيف كان يخفي أعراض مرضه حتى عن الأطباء متحملاً الآلام .

ومع أنه لم يكن يقوى علي المشى علي قدميه فقد كان عليه أن يتحمل آلاماً مبرحة وأن يرسم ابتسامة مشجعة على وجهه خلال زيارته الدائمة للمواقع العسكرية حتى لا يكتشف شعبه أنه مريض .

والطريف أن حالة عبد الناصر لم تمكنه أثناء رحلته إلى موسكو من مناقشة قضايا كان الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات قد اصطحبه جمال عبد الناصر لبحثها .

وكانت تلك الزيارة الأولى لعرفات إلى موسكو للتعرف على القيادة السوفييتية ، ولقد جاء عرفات مع عبد الناصر تحت غطاء أنه مستشار فنى وبإسم مستعار هو (أمين) .

وبعد ٦ يوليو التقيت بالرئيس عبد الناصر مرات عديدة .. ولكننى منذ اللقاء الأول كنت قد أدركت أن هذا الإنسان الشجاع القوي جدير بالاحترام وأنه حقيقة ما يقولونه : (لا يصنع الرجال الضعفاء الثورات) .. وأن هذه العبارة ليست كلاماً أجوف .

وعندما بدأنا فى علاج عبد الناصر من تصلب الشرايين أتذكر أننى قلت له : أول ما نطلبه منك أن تقلع عن التدخين وفي التو طلب

عبد الناصر مرافقه وأعطاه علبة السجائر (الجمل) التى كانت فوق المائدة أمامه وإلى جوارها القداحة " الولاعة " وأضاف موجهاً حديثه لمرافقه : من اليوم لن أدخن .. ثم أدار وجهه مبتسماً ناحيتى وقال : لو أن هذا الأمر يتعلق بى شخصياً لجادلتك .. ولكنه يتعلق بمصير مصر .. وبالفعل كان عبد الناصر وفياً بوعده بالامتناع عن التدخين حتي النهاية .

عبد الناصر بين برچينيف وبودجورنى

وقررنا بعد بحث حالة عبد الناصر من كافة جوانبها أن العلاج يتيعن أن بدأ بحمامات المياه المعدنية والطينية أى العلاج الطبيعي .. فبعد أن أثبتت الفحوص المعملية والإكلينيكية صحة ودقة التشخيص بأن عبد الناصر يعانى من " تصلب شرايين الساقين " توصلنا إلى أن العلاج الجراحي لن يفيد .

فى ذلك الوقت كانت جراحات الأوعية الدموية لمعالجة مرض تصلب الشرايين في بداية عهدها ، إلا أن حالة عبد الناصر لم تكن تحتمل استخدام هذا العلاج ، ذلك أن الأجزاء " الطرفية " من شرايين الساقين أكثر الأجزاء إصابة بالتصلب ولا يمكن للجراحة أن تقدم

النتائج المرجوة .

وهكذا اقترحنا العلاج في ينابيع (تسخالطوبو) الواقعة في جمهورية چورچيا السوفييتية .. وكانت تلك المنطقة مشهوداً لها بتحقيق نتائج جيدة بالنسبة لحالات مماثلة لما يعانيه عبد الناصر .

ولقد وافق عبد الناصر من حيث المبدأ على الاقتراح إلا أنه علق إعطاء نفسه (أجازة) إلى حين عودته إلى القاهرة وبحث هذا الموضوع مع القيادة المصرية ومجلس الأمن القومي المصري .

ولقد لاحظت أن عبد الناصر كان يستخدم كلمة (الراحة والأجازة) بدلاً من العلاج أو المرض .. إلا أن عبد الناصر وعدنا بالعودة في أقرب وقت إلى الاتحاد السوفييتي والتوجه إلى " تسخالطوبو " وقمت بإبلاغ بريچينيف بنتائج الفحص الطبي لعبد الناصر وإلى ما انتهينا إليه بشأن العلاج .

وأتذكر إلى الآن كلمات بريچينيف التي أجابني بها في تلك اللحظات .. قال : " افعلوا كل ما بوسعكم كي يسترد عبد الناصر عافيته .. لا يوجد في الشرق الأوسط زعامة أخرى يمكنها أن توحد العرب في مواجهة إسرائيل والولايات المتحدة ، ولو أن عبد الناصر اختفى من المسرح السياسي فإننا سنتلقى أكبر ضربة قاصمة تضر

بمصالحنا ومصالح العرب .. افعل كل شيء لازم لعلاجه .. وسوف يوجه مجلس السوفييت الأعلى دعوة لعبد الناصر للاستجمام والراحة في بلادنا وسوف أبلغ نيقولاى بودغورنى " .

وكان بورغورنى حينئذ أحد أعضاء القيادة الجماعية الثلاثية للبلاد والمكلف بتأمين كل ما هو ضروري لذلك .

واتصل بودغورنى بى وقال لي بلهجة جافة أعتادها : اتصل بى بريچينيف وطلب منى أن أساعدك فى موضوع عبد الناصر .. ولقد أعطيت تعليماتى وأوامرى .. إتصل أنت برجالى فسوف يهتمون بالموضوع " وانتهى حديث بودغورنى (المثمر) معى " .

أما كيف قام رجاله بتقديم العون فقد انكشف ذلك لدى زيارتي لمدينة (تسخالطوبو) كى أتفقد على الطبيعـة الاستعدادات لتوفير إقامة طبية لعبد الناصر .

ولكن مقدمات ما يحدث (بتسخالطوبو) كان يمكن التنبؤ بها في موسكو .. وتحديداً فى مجلس رئاسة السوفييت الأعلى حيث كانت الأمور تخضع لسلم بيروقراطى طويل ..

وفى النهاية كانت المفاجأة أن وجدت نفسى أمام رئيس معمل التصوير أو رئيس قسم التصوير الفوتوغرافى والسينمائى بمجلس

السوفييت الأعلى ويدعى (دانيلوف) وكان هذا الرجل هو المسؤول عن تنظيم استقبال عبد الناصر .. وكانت المساعدة التى تقدم بها (دانيلوف) تنحصر فى توقيع ميزانية استضافة بعد مماحكات وممانعات .

وكانت المفاجآت الأكبر تنتظر فى (تسخالطوبو) .. لم يكن هناك أى مقر يليق بإقامة رئيس دولة أجنبية صديقة وكبرى .. وكانت كل الاستراحات القديمة " الريفية " قذرة ومهملة أما دور النقاهة فقد كانت عنابرها وغرفها ضيقة المساحة (بين ١٢ و ١٤ متراً مربعاً) ولا تتوفر فيها وسائل الراحة .

وكان الوضع صعباً للغاية إلا أن الرفيق (مجافاندزا) السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى چورچيا آنذاك بذل مجهوداً طيباً وأشرف بتوجيهاته على إعداد مبنى دار نقاهة رئاسة الحكومة فى چورچيا في مظهر لائق إلى حد ما .

وقبيل وصول الرئيس عبد الناصر قام موظفو مكتب الرئيس المصرى بزيارة تفقدوا خلالها مقر إقامته المقترح .. حيث وجدوا ثلاث غرف صغيرة مساحة الواحدة منها ١٤ متراً مربعاً . وطلبوا على استحياء وفى صيغة ســــــؤال : ألا يوجد مكان أكثر اتساعاً من

هذا ؟ " .

وساعتها أجبتهم فى حدة تسببت فيها معاناتى الطويلة من إهمال وتسيب المكلفين بإعداد استضافة عبد الناصر قائلاً :

" هذا أفضل ما عندنا وليس عندنا مكان آخر " .. فأجابوا بنبرة أكثر حدة :

" ألا ترون أنكم تستقبلون رئيساً لدولة أجنبية .. "

وفي داخلى كنت علي قناعة تامة بأسباب تذمر المصريين ، ولكنى كنت عاجزاً عن عمل أى شيء لتغيير هذا الوضع غير الطبيعى ..

وساعتها أحسست بالوجه الآخر " لليبرالية " الزعيم السوفييتي الأسبق خروشوف الذى شن حملة واسعة للقضاء على امتيازات قيادة الدولة وتساءلت : ألم يكن من الفطنة أن نحتفظ ببعض الاستراحات الريفية كى نستخدمها لاستضافة الضيوف الأجانب .

ماسح الأحذية

تأخر عبد الناصر عن الموعد المقرر لحضوره إلى " تسخالطوبو " حوالي شهرين إلا أن ذلك لم يكن له صلة بما نقل إليه عن الظروف

الصعبة أو غير المناسبة أو اللائقة التي تنتظره لدينا .. بل كان هذا التأخير ناتجاً عن انشغاله بإدارة عمليات دعم دفاعات بلاده أمام غارات الطائرات الإسرائيلية المتواصلة .

ولقد اختار عبد الناصر أن يصحب معه عدداً محدوداً من مرافقيه بين سكرتارية ورجال حراسة ، كما كان بصحبته أيضاً الدكتور مراد غالب سفير مصر فى موسكو فى ذلك الحين .. وهو طبيب يتسم بالذكاء فضلاً عن شخصيته اللطيفة .. وكان على فهم بحالة عبد الناصر الصحية .

وكان من المفترض أن يكون رجال المخابرات السوفييتية قد فعلوا ما بوسعهم لتأمين سرية زيارة عبد الناصر . ولكنى أتذكر أنه قبل أربع ساعات من وصول الرئيس إلى مدينة " تسخالطوبو " ذهبت إلى سوق المدينة كى أنظف حذائى .. فمن الواجب أن أقابل رئيس دولة أجنبية فى أفضل هندام .. وكان ماسح الأحذية رجلاً عجوزاً يميل إلى المرح .. وظن العجوز أننى من المصطافين فأخذ يطنب فى الحديث عن جمال وروعة المدينة ثم أومأ إلى برأسه وقال لى بنبرة خافتة :

" أنت تبدو لى رجلاً طيباً .. سأقول لك سراً .. تستطيع الوقوف

على ناصية الميدان وأشار بيده إليها .. فى تمام الساعة الثانية عشرة وسترى عبد الناصر " .

والطريف أن الرجل وصف بدقة بالغة خط السير المقرر لسيارة الرئيس المصرى .. وهو خط السير الذى وضعه رجال المخابرات السوفييتية فى الليلة السابقة وسط سرية تامة .. أليسوا مساكين رجال مخابراتنا !

واستطاع عبد الناصر أن يزيل التوتر الذى نشأ عن تواضع مقر إقامته فى "تسخالطوبو" .. وأخبرنا المترجم سلطانوف الذى خصصناه لمرافقة الرئيس المصري أن عبد الناصر قال لرجاله :

" لا تتحدثوا فى هذا الموضوع .. فالمكان هنا يروق لى ، ولا تنسوا أننا ضيوف .. وأننى جئت لألتمس الشفاء " .

ومع ذلك فقد كان حمام السباحة الرخامى الذى يعود عهده إلى ستالين والذى لا تزال مياه الينابيع الطبيعية تتدفق فيه كفيلاً بأن يخفف عن ضيوفنا تواضع الضيافة ولقد أبدى عبد الناصر إعجابه بطرقنا فى العلاج بالمياه الطبيعية وبالطمى ، وتعامل مع معالجيه ببساطة وتواضع جم كعادته .. وكان من حين لآخر يخرج للتنزه معنا فى الحدائق المجاورة .

وبالتدريج بدأت أعراض " الغرغرينا " فى أصابع القدمين بالاختفاء .. واختفت الآلام واختفي معها الأرق الذى كان يمنع عبد الناصر من النوم قبل ذلك .

والحقيقة أننى لم أكن أتوقع هذه النتائج الإيجابية من إيمانى بقدرات العلاج بحمامات المياه الطبيعية والمعدنية .

كان عبد الناصر نفسه مندهشاً للسرعة التى أنقذناه بها من مرض بدا ميئوساً من شفائه وربطت بين الرئيس المصرى وأطبائه السوفييت صداقة وطيدة وخصوصاً الدكتور " تيولبين " الذي خصصناه للإشراف على علاجه .

وأثناء ذلك لم يكن عبد الناصر يخرج أبداً من مقر إقامته إلا لتلقــى العلاج أو القيام بنزهة قصيرة من آن لآخر فى الحدائق المجاورة .

وأخيراً انتهت فترة العلاج واستعد عبد الناصر للعودة إلى بلاده فى صحة طيبة .

وقبل سفره كانت نصائحنا له أن يلتزم بالنظام الغذائى الخاص الذى وضعناه وأن يبتعد عن الإجهاد والانفعالات النفسية والتوتر .. وكنا نعرف جيداً أن التحسن الذى طرأ على صحة عبد الناصر يعود

إلى نمو أوعية دموية جديدة إلى جوار الأوعية الدموية القديمة مما وفر دورة دموية طبيعية للساقين وذلك بفضل استخدام نظم العلاج الطبيعى .

ولكن قدرات الطب لم تكن تصل فى هذا الوقت إلى إيقاف تصلب الشرايين تماماً وتمنع ظهوره فى أجزاء أخرى من جسم المريض .. خصوصاً أن عبد الناصر كان يعانى من مرض السكر .. وكنا فى ذلك الوقت على وعى بأن مرض تصلب الشرايين سيستمر ويتزايد وكان من الصعب توقع أى من الأوعية الدموية سيصاب فى المستقبل .. ولذا كانت نصائحنا واضحة بضرورة اتباع عبد الناصر لنظام العلاج وتجنب الإجهاد والانفعالات .

النصائح الصعبة

واستمع عبد الناصر باهتمام لتلك النصائح وابتسم قائلاً : " من الصعب أن تبقى رئيساً لمصر وتنفذ كل هذه النصائح " .

واتفقنا مع عبد الناصر أن نزوره بعد ثلاثة أو أربعة شهور كى نجرى تقييماً لنتائج علاجنا على المدى الطويل ؛ وحالته الصحية وتقديم نصائح جديدة لمتابعة العلاج .

واقترحنا على عبد الناصر أن يشارك طبيب سوفييتى مع الأطباء المصريين فى متابعة صحته خلال تلك الشهور الفاصلة بين عودته لبلاده ووصولنا إليها .. ورشحنا اسم الدكتور " تيولبين " إلا أن عبد الناصر أشار إلى أنه يخشى القول يفهم ذلك باعتبار أنه علامة عدم ثقة فى أطبائه المصريين .. وأضاف أنه يثق كذلك بالأطباء المصريين مع تقديره لمعالجيه السوفييت وانتهى إلى القول : " لن يفهم الشعب ذلك " فى إشارة للاقتراح الذى تقدمنا به .

وكان وداع عبد الناصر حاراً .. وبعد أن عاد إلى القاهرة وجه الرئيس المصرى إلى بريچينيف رسالة شكر .

وبعد شهور عديدة عندما زرنا القاهرة والتقينا به كان عبد الناصر فى صحة جيدة ؛ يمشى كثيراً ويعمل كثيراً .. ويلعب " التنس " بينما كان مشغولاً باستعادة قدرة بلاده الدفاعية ، وتوطيد التعاون العربى .

وعندما عدنا من القاهرة كنا راضين تماماً عن وضع عبد الناصر الصحى لكن المستقبل كان يخفى الكثير .

فى أول شهر سبتمبر من عام ١٩٦٩ توجهت بسيارتى إلى أحضان الطبيعة على نهر " الفولغا " حيث أقمنا واحداً من أفضل

منتجعات الاستشفاء الحديثة وزودناه بأجهزة طبية متقدمة .. كان المنتجع فى طور الإعداد .

وبعد نقاش مستفيض مع المهندسين وعمال البناء ذهبنا إلى الشاطىء للراحة والاستمتاع بوجبة سمك طازجة وكان الطقس رائعاً فى إحدى أمسيات سبتمبر الدافئة مما يبعث جواً من الطمأنينة ، إلا أن هذه الأجواء الشبيهة بحلم جميل لم تدم.

أخبرنى أحد المسئولين المحليين بالمنطقة بأن موسكو اتصلت تليفونياً وتطلب منى أن أكون فى مكتبى غداً فى الصباح الباكر للضرورة ، حيث سأتلقى تليفوناً هاماً .

وكنت فى الصباح داخل مكتبى فى موسكو بعد رحلة بالطائرة قطعت حوالى ألف كيلومتر .. وجاء صوت الهاتف وكان المتحدث هو يورى أندروبوف المسؤول عن جهاز المخابرات " كى . بى جى " الذى أبلغنى أنه قد وصلته رسالة عاجلة من القاهرة تطلب من الزعيم السوفييتى بريجينيف أن يبعث بى إلى الرئيس المصرى جمال عبد الناصر على وجه السرعة . وأضاف أندروبوف أن الرسالة لم تذكر أى تفاصيل أخرى ، ولكن المصريين يشددون على الحفاظ على سرية الزيارة .

وقال أندروبوف لى : " أن إعداد طائرة خاصة للسفر إلى القاهرة الآن قد يستغرق وقتاً طويلاً .. كما أنه قد يلفت انتباه موظفي الطيران المدنى بالقاهرة والعاملين فى شركة الطيران السوفييتية "إيرفلوت" وخاصة أن المخابرات الإسرائيلية (الموساد) مفتوحة أعينها على القاهرة " .

ولذا اقترح أندروبوف أن أسافر على متن رحلة عادية مقرراً قيامها فى الساعة الثانية عشرة ، بعد ثلاث ساعات من حينه .. وأضاف قائلاً : " غالباً لن يثير حضورك إلى القاهرة الاهتمام أو الفضول .. قليل من يعرفك هناك .. وسوف يتولى رفاقنا ترتيب صعودك إلى الطائرة من موسكو ستجلس فى الدرجة الأولى ولن يكون هناك أحد سوى أحد مستشارينا العسكريين وهو لا يعرف شيئاً عن هويتك .

وفى القاهرة ستجد رجالنا فى انتظارك يأخذونك من باب خاص فى الطائرة إلى مكان أمين بالاتفاق مع المصريين .. وعندما تخرج إلى القاهرة احرص على ارتداء نظارة سوداء وقبعة حتى لا يتمكن أحد من التعرف عليك أو تصويرك من شرفة مبنى المطار " .

كانت تلك التعليمات تنسج قصة شبيهة بقصص چيمس بوند ..

ورغم إننى لا أجيد التمثيل مطلقا فقد فعلت كل شىء كما طلبوا منى .

عندما نزلت من سلم الطائرة إلى أرض مطار القاهرة أحاط بى مجموعة من رجال فى دائرة محكمة وفي ثوان كنت أجلس فى سيارة انطلقت بى فى شوارع القاهرة حتى فندق شبرد على النيل ، وصعدت إلى الطابق الأخير الذى أغلق عدد من الحراس جزءاً منه خصصوه لإقامتى وقادنى رجل أمن إلى جناح واسع طلبوا منى ألا أغادره إلا برفقة سكرتير عبد الناصر ..

هدية للإسرائيليين

وبعد عشرين دقيقة فقط حضر سكرتير عبد الناصر وذهبنا معاً إلى بيت الرئيس فى ضاحية مصر الجديدة بالقاهرة .. ولكن قبل أن أروى ماذا حدث هناك يتعين أن أشير إلى بعض الخلفيات التى وقعت بين زيارة عبد الناصر (لتسخالطوبو) ورحلتى المفاجئة إلى القاهرة ..

وهى خلفيات سوف أقصها بقدر ما توافر لدى من معلومات أظنها غير وافية ولم تكتمل إلى حينه لدى .

رغم نصائحنا فى موسكو التى كنا نبعث بها إلى عبد الناصر أجل الرئيس المصرى إجازته عدة مرات .. وفى بداية شهر سبتمبر حضر عبد الناصر مؤتمراً للزعماء العرب وشعر أثناءه بتعب شديد .. وبدأ عبد الناصر منذ العاشر من الشهر نفسه فى الشعور وللمرة الأولى بألم فى صدره .. وأوضح رسم للقلب أجراه الأطباء المصريون أن عبد الناصـــر أصيب بذبحة صدرية واحتشاء بعضلة القلب فأخبروا أصدقاءه المقربين وعائلته .

وكما علمت فيما بعد فقد نوقشت تطورات الحالة الصحية لعبد الناصر فى اجتماع بمنزله حضره عدد من القادة المصريين بينهم أنور السادات وشعراوى جمعه والفريق محمد فوزى .. وحذر الأطباء المصريون من خطورة المضاعفات على صحة وحياة عبد الناصر وكانوا مصيبين فى ذلك تماماً واقترحوا توسيع (الكونصلتو) الطبى ليضم أخصائيين أجانب إلى جانبهم ، إلا أن جميع القادة السياسيين المجتمعين أعربوا عن خشيتهم من أن يؤدى استدعاء الأطباء الأجانب إلى تسرب نبأ اعتلال صحة الرئيس ، وهو نبأ إن شاع سيكون بمثابة (هدية للإسرائيليين) يستخدمونه لبث الشائعات وسط العرب عن مرض الرئيس العضال ويشككون فى قدراته على قيادة بلاده والعالم العربى فى مواجهتهم .

ووجد أنور السادات ومحمد حسنين هيكل مخرجاً واحداً لهذا المأزق تمثل فى دعوة البروفيسور شازوف إلى زيارة سرية للقاهرة كى يشارك فى (الكونصلتو) وخصوصاً أننى محل ثقة الرئيس المصرى.

وفى منزل متواضع مكون من طابقين اثنين كان يقيم عبد الناصر .. فى طابقه الأول قابلتنى زوجته الوقور والصامتة دائماً وجَمع من أطبائه .. ولم يترك حديثهم عن شكوى الرئيس الأخيرة ونتائج رسم القلب لدى أى شك من أن مرض (تصلب الشرايين) قد وصل إلى شرايين القلب وأدى إلى ظهور " احتشاء القلب " أى إصابة أجزاء منه ..

ولحسن الحظ فإن التطور الخطير فى حالة عبد الناصر لم يكن قد مر عليه سوى يوم واحد أو يومين .. وكان من السهل اكتشاف أن عبد الناصر يعانى من (احتشاء القلب) متوسط الخطورة ودون أية مضاعفات أخرى . .

وكان يجب عليه أن يتعاطى العقاقير التى تسهم فى توسيع مجرى الأوعية الدموية فضلاً عن أخرى مضادة " للتجلط " .

وفى توسل نظرت إلى زوجته وأطباؤه مطالبين أن أتولى بنفسى إقناعه بأنه يحتاج إلى راحة تامة تدوم شهراً على الأقل .

وصعدنا إلى الطابق الثانى حيث غرفة نوم عبد الناصر المتواضعة .. وكان جسده ممدداً فوق الفراش .. ولكنه فور أن رآنى بادرنى باعتذار رقيق عن الرحلة المفاجئة العاجلة التى جات بى إلى القاهرة وابتسم قائلاً : " أترى .. أى مريض اخترت ؟ " إلا أن هذه الأجواء المفعمة بالترحيب ودفء المشاعر لم تتغلب على قلق ينمو داخلى إزاء المستقبل .

ولما كنت على إيمان بأن " الصراحة أفضل دواء " كما علمتنى الحياه وتجاربها وأن الصراحة هى الأكثر قرة فى النفاذ والتأثير على الأشخاص الأقوياء وخاصة ممن اعتادوا اتخاذ القرارات بأنفسهم فقد أجبت عبد الناصر عندما سألنى عن احتمالات تطور حالته فى المستقبل قائلاً : " أولاً يلزمنا على الأقل عشرة أيام قبل أن يصبح كل شيء أمامنا واضحاً " .

ونظر إلى عبد الناصر ثم قال بلغة تذيب المسافات : " لا تفكر إننى لا أثق بأحد أو إننى أشك فى نصائحك .. ولكن الوضع شديد الخطورة عندنا نحن نحاول الوقوف على قدمينا .. والآن فقط بدأنا لتونا فى دعم قدراتنا الدفاعية لإنشاء جيش حديث وعصرى .. وفى هذه الظروف الصعبة فإن اختفائى عن الأضواء أو المشاركة قد يضعف من جهودنا .. هذا هو قدرى .. ولما كانت عيون الإسرائيليين

تراقب شؤونى بل وأحوالى الصحية كذلك فقد أخفينا بحرص نبأ زيارتك للقاهرة .. ولقد أبلغنى أمين هويدى رئيس المخابرات المصرية حينئذ بأن " الموساد " أى المخابرات الإسرائيلية قد كثفت نشاطها فى الفترة الأخيرة لمعرفة هل حدث شىء لى أم لا .. ولذا فقد طلبنا منك أن تلزم الفندق طوال فترة بقائك بالقاهرة " .

وفجأة سألنى عبد الناصر " ما الذى أقترحه لتغطية سر اختفائه عن الأضواء من أجل تضليل الجواسيس وطمأنة الشعب ؟ " .

واقترحت أن يجري الإعلان عن إصابة الرئيس بنوبة " أنفلونزا " وزكام وبرد حادة ولذا فهو يحتاج إلى ملازمة الفراش لمدة أسبوعين .. ويمكن من خلال ذلك أن يظهر عبد الناصر للحظات بصحبة الشخصيات العامة أمام وسائل الإعلام بأى مبرر .. وكان هذا الاقتراح من وحى انتشار نوبة " أنفلونزا " شديدة فى القاهرة خلال ذلك الوقت .

واختلاف الأسباب والمبررات لإخفاء حقيقة مرض زعيم سياسى لا يعد جديداً .. حدث هذا مع القادة السوفييت بريجينيف وأندروبوف وتشيرننكو وغيرهم .. ولكن حالة عبد الناصر كان لها وقع خاص فى نفسى ، كان الرجل وبلاده فى موقف صعب وهناك جهود لإخراج

بلاده من هذا المأزق من أجل استقلالها وحريتها .. وهكذا قد يجعل العمل السياسى الإنسان مضطراً أحياناً لإخفاء مرضه وعجزه وشعوره ، فقط لكونه ليس إنساناً عادياً .

وانتهى لقائى الأول مع عبد الناصر فى القاهرة بالاتفاق على أن أبقى فى مصر لمدة عشرة أيام ، هى أخطر فترة يمر بها مريض القلب عقب إصابته " بالذبحة الصدرية " على أن أزوره مساء اليوم نفسه حين يخيم الظلام .

وكلن السادات واخرون من قادة الدولة ينتظرون فى الطابق الأول لمنزل عبد الناصر حين هبطنا إليهم بعد لقاء الرئيس وأبلغناهم بما توصلنا إليه .. وأخذ السادات فى الإطالة بعبارات الشكر والثناء علي بسبب الأنباء الطيبة التى حملتها والتى يفهم منها أن حياة عبد الناصر لا تتعرض لخطر مباشر وموافقتى على البقاء في القاهرة .

مهمة سياسية خاصة

كنت أذهب إلى منزل عبد الناصر كل مساء .. ومنذ الزيارة الثانية له بدأ عبد الناصر يشعر بتحسن فى صحته وبالتدريج بدأت أحاديثنا تتحول بعيداً عن المرض .. وكنت أيامها صغيراً وغير

منغمس فى السياسة أو الشؤون الدبلوماسية .. مجرد بروفسير وطبيب .

وفي البداية لم أفهم هدف هذه الأحاديث وصراحة عبد الناصر معى فى موضوعات لا تعني مهمتى مباشرة .. ولكنى فى النهاية تسلمت منه رسالة خاصة طلب منى أن أسلمها لبريچينيف . وفهمت أن عبد الناصر اعتبرنى ليس مجرد طبيب أعالجه بل اعتبرنى شخصاً يوثق به لدى قادة بلاده وأن هؤلاء القادة سوف ينصتون باهتمام لما أقوله حين عودتى عن مضمون محاوراتي وأحاديثي مع الرئيس المصرى علاوة على الاطمئنان بشأن حالته الصحية .

وحين تسلمت رسالة عبد الناصر الخاصة إلى بريچينيف تذكرت لماذا أبدى الرجل تذمره أمامى من شحنات الأسلحة القديمة التى ترسلها موسكو ، وتأكيده أنه فى حاجة إلى صواريخ سام ٢ و ٣ المضادة للطائرات ولطائرات " ميج ـ ٢٥ " لحماية سماء مصر .. كما أخبرني أنه يريد تدريب عدد كبير من العسكريين المصريين فى الاتحاد السوفييتى .

وتحدث عبد الناصر عن استعدادات إسرائيل العسكرية المتصلة وقدرتها فى الهجوم على بلاده وعجزه عن الدفاع عن مدينة

الإسكندرية ثانى مدن البلاد .

قال عبد الناصر كل ذلك بلغة دبلوماسية محنكة تفادت أسلوب الصدمة المباشرة لطبيب مثلى .. وأتذكر أن عبد الناصر صارحنى بحقيقة قدرات الدفاع عن مدينة الإسكندرية فى معرض دعوتى للذهاب إليها للراحة والاستجمام ليوم واحد بالقرب من شاطىء البحر

وبالمصادفة تعرضت " لموقف كوميدى " فى الإسكندرية يرتبط بالحفاظ على سرية شخصيتى .. فى المساء قرر المصريون المكلفون برافقتى وبعد أن أصابهم الملل من الانتقال بين الأماكن المغلقة والخاصة حفاظاً على السرية أن يدعونى إلى العشاء فى أحد المطاعم الصغيرة حيث من المستبعد أن يتعرف أحد على شخصيتى ، وخاصة أن مصر كانت تعج آنذاك بخبرائنا السوفييت من العسكريين .

وبينما كنا نستمتع بتناول العشاء الرائع اقترب من الطاولة التى نجلس إليها اثنان من الموسيقيين كانا يقومان بأداء قطع موسيقية للزبائن .. وفجأة انطلقا فى عزف المقطوعة الروسية الشهيرة " ليالى ريف موسكو " وبعد دقائق كنا قد تركنا المطعم مهرولين .. وتذكرت ساعتها ماســــح الأحذية العجوز فى (تسخالطوبو) وقلت لنفسى

" هكذا الأحوال والمشاكل واحدة فى مصر والاتحاد السوفييتى " .

وبعد عشرة أيام هى فترة الراحة التى أمضاها عبد الناصر فى منزله بدأ الرئيس المصرى فى مقابلة وزرائه .. وعدت بالطائرة إلى موسكو بقلب موجع لأننى أدركت أن عبد الناصر لن يلتزم بتعليماتنا الطبية .. لقد كان أمامه عمل كبير لإعادة بناء قوة بلاده .. وهذا ما حدث بالفعل .

لم يمض أسبوع على مغادرته الفراش إلا وكان عبد الناصر قد انخرط في عمل مضن .. وأدركت حينئذ أننا كأطباء لا نملك إلا النصح والتحذير من المخاطر المحدقة بالمريض وخصوصاً إذا كان من ذوى الإرادات القوية الذين يأخذون قراراتهم بمحض إرادتهم حتى لو كانت فى غير صالح حياتهم وبقائهم .

وعاش عبد الناصر الشهور الباقية من حياته ليوفر أسباب النصر لبلاده فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتهيئة الأجواء لإقامة سلام عادل مع إسرائيل .

وقبيل رحيل عبد الناصر في سبتمبر ١٩٧٠ حصلت على أعلى وسام فى بلادى " وسام لينين " وتردد إسمى بين قائمة العاملين فى مجال الصحة مقترناً بالجملة التقليدية والمأثورة " وسام لينين " من

أجل النجاحات التى حققتها فى سبيل تطور الصحة والعلوم الطبية .

وأتذكر أننى قابلت أندروبوف "رئيس المخابرات كى . بى . جى" عقب أن حصلت على الوسام الرفيع وقلت له متعجباً : " إننى محرج من إعطائى هذا الوسام الذى لا أستحقه " فأجابنى أندروبوف : " ما فعلته من أجل عبد الناصر هو من أجل بلادنا .. أنت لا تعرف مدى ما تمثله صحة عبد الناصر لنا من رأس مال سياسى كبير " .

ولكنى كطبيب لم أنظر يوماً لأى من مرضاى بمدى ما يمثلونه من ثروة سياسية أو اقتصادية كان ما يعنينى أولاً هو أن أتفانى فى خدمة المريض والإنسان .

نصيحة عاجلة

قدر لى أن التقى بعبد الناصر فى موسكو وتحديداً فى بداية عام ١٩٧٠ كان الرئيس المصرى فى زيارة تستهدف إعادة تسليح الجيش ومناقشة مبادرة روجرز .. ولم أكن أتصور أن صحته قد تدهورت إلى هذا الحد .. صحيح كانت تصلنى قبل أن ألقاه فى موسكو أنباء متفرقة عن عمله المكثف ومجهوداته الكبيرة وحالته الصحية التى تسوء فى بعض الأحيان ، وخاصة بعد زيارة قام بها إلى ليبيا لمقابلة

" أخيه الشقى القذافى " كما أطلق عليه عبد الناصر هذه التسمية فى حديث معى .

وفى تلك الزيارة كان عبد الناصر يركب السيارة لمدة خمس ساعات متواصلة ثم دون أن يلتقط أنفاسه يلقى خطاباً فى الجماهير المحتشدة فى ليبيا .. وقد يستغرق هذا الخطاب ساعة .. وهكذا دون أى راحة .

وعنما علمت بذلك طلبت من بريچينيف أن يرسل إلى عبد الناصر خطاباً ليعيد تذكيره بتوصياتنا الطبية وأرسل بريچينيف برسالة لعبت دوراً سياسياً محدداً فى إظهار مدى اهتمام الزعامة السوفييتية بصحة الرئيس المصرى .

ونعود إلى حالة عبد الناصر الصحية عندما جاء إلى موسكو فى مطلع عام ١٩٧٠ علاوة علي قصور الأوعية الدموية فى أوعية القلب بدأت تظهر علامات " الهبوط " وتعجبنا للسرعة التى تسبب فيها " احتشاء القلب " فى هبوط فى القلب .. ففى مثل حالة عبد الناصر لا يؤدى المرض إلى هذا التطور مطلقاً أو لا يفضى إليه بمثل هذه السرعة .

وعندما انفردت بعبد الناصر لم يخف الزعيم العربى تعكر مزاجه

وتكدره لتدهور حالته الصحية سريعاً ، وفى مدينة " بارفيج " أتيح لعبد الناصر أن يتلقى قسطاً من العلاج والراحة أدى إلى قدر من تحسن حالته الصحية . وكان المكان ساحراً إلى حد أن عبد الناصر بدأ في عقد اجتماعات لمستشاريه العسكريين الذين كانوا فى الاتحاد السوفييتى آنذاك فى تلك المدينة .

وأتذكر أنه فى إحدى الأمسيات طلب عبد الناصر أن نعرض له ولمستشاريه فيلم " التحرير " السوفييتى الشهير الذى كان يصور معارك الدبابات فى (كورسك) أثناء الحرب العالمية الثانية وكان الفيلم يعرض فى دور السينما للمرة الأولى .. ولن أنسى كيف التفت عبد الناصر إلى مستشاريه العسكريين بعد أن انتهى الفيلم وأضيئت الأنوار قائلاً : " هكذا يكون القتال ، وهكذا تحارب المدرعات " .

ولم أكن أفهم فى ذلك الوقت مغزى كلمات وإيماءات عبد الناصر لمستشاريه تعليقاً على فيلم " التحرير " وربما تطلب الأمر ثلاث سنوات أخرى لأفهم معنى ما قاله حين وقعت حرب مدرعات طاحنة فى سيناء .

لقد وعدنى عبد الناصر فى لحظات الوداع المؤثرة فى مدينة "بارفيج" أن يلتزم بالنصائح الطبية ، ولكن هذا الوعد للأسف تبخر

إلى كلمات ، وحين عاد إلى القاهرة انهمك مرة أخرى فى العمل المكثف .. وكنا ندرك أن المأساه قد تحدث فى أى لحظة تعقب مجهوداً عصبياً أو بدنياً كبيراً ، وهو ما كان ..

السادات وصبرى

وفى بداية سبتمبر بدأ الصراع بين الملك حسين عاهل الأردن والمقاومة الفلسطينية يأخذ أبعاداً خطيرة ويهدد التضامن العربى .

ويذل عبد الناصر مجهوداً عصبياً وبدنياً كبيراً دون أن يأخذ قسطاً من الراحة .

وتحسن الموقف السياسى وبدا أن الأزمة العربية تمر بسلام إلا أن عبد الناصر أصيب باحتشاء فى عضلة القلب للمرة الثانية ، وفى هذه المرة فارق عبد الناصر الحياه فى ٢٨ سبتمبر بشكل كان مفاجئاً لنا جميعاً .

كان التوتر الشديد الذى يلف حياة عبد الناصر ولا يناسب مطلقاً مريضاً بتصلب الشرايين و" احتشاء القلب " وفى بلادنا يقولون عن هذه الحالة أن المريض قد " احترق " وبالفعل احترق عبد الناصر فى خضم النضال السياسى .

وبعد وفاة عبد الناصر بعدة أعوام فوجئت بالرئيس المصرى أنور السادات يدعونى لزيارة القاهرة لإجرا فحوص طبية وذهبت رغم أن كافة المعلومات التى توافرت لدينا كانت تشير إلى أنه سليم ومعافي تماماً .. ولا أدرى ما إذا كان وراء تلك الدعوة أسباب سياسية لا علاقة لها بالصحة أم لا .

وقمت بزيارة منزل السادات الجديد في الجيزة بصحبة المترجم سلطانوف .. كان المنزل الجديد كبيراً وفخماً واستقبلنا الرئيس السادات مرتدياً عباءة شرقية فخمة وعلى رأسه شيء أشبه " بالطربوش التركى " وفى يده اليمنى عصا رائعة الجمال ، إلا إننى خلف كل ذلك لم أر فيه سوي الضابط العربي الذي يرتدى سترة عسكرية مفتوحة بينما أطل تحتها حذاء عسكرى غليظ .

وكان هذا هو الانطباع الذى علق بذهنى حين قابلته في القاهرة عام ١٩٦٩ حين طلب عبد الناصر من صديقيه المقربين أنور السادات وعلى صبرى أن يتناوبا دعوتى للعشاء في بيتيهما حتى يهون على قيود " السرية " التى أحاطت بزيارتي لعلاجه ، وحينئذ ومن خلال الأمسيات الطويلة التى أمضيتها مع الرجلين السادات وصبرى بدا لى الأخير أكثر نطقاً ولباقة وثقافة من السادات ذى الطبيعة العملية الذي يبدو أحياناً " متهوراً " تماماً مثل الضباط من ذوى الرتب

الرفيعة .

وفى تلك الأيام التى تعود إلى عام ١٩٦٩ كنت أجلس والسادات فى بيته المتواضع للغاية نشرب نخب أقداح " الفودكا " فى صحة الصداقة بين الشعبين المصرى والسوفييتى ، اعترافاً بمساعدة موسكو فى بناء الجيش المصرى .

وكان كل من علي صبري والسادات يحاول معرفة تفاصيل مرض عبد الناصر واحتمالات تطوره ولكنى لم أفهم أن هذه التفاصيل يتعين أن تظل سراً حتى بالنسبة لأقرب المقربين للرئيس المصرى ولم يكن ذلك سرى الخاص وإنما سراً يخص عبد الناصر ائتمننى عليه .. وإذا أراد هو ـ عبد الناصر ـ أن يبلغه لأصدقائه ومساعديه فإن الأمر متروك لقراره هو شخصياً وحده ، ولا سيما أن أصدقائى المصريين كانوا قد أشاروا لى من قبل بوجود خلاف بين السادات وصبرى .

وأتذكر أننى وجدت الرجلين مرة معاً عند عبد الناصر فى إحدى زياراتى لمنزله ، وربما لاحظ عبد الناصر علامات اندهاش علي وجهى فقال لى : " تردد شائعات عن وجود خلافات بيننا فى القيادة .. وها أنت تري بنفسك كيف يجلس الأخوان معاً .. لقد عاشا فترة طويلة وهما علي حب ووفاء " .

وأضاف عبد الناصر : " قل لزعمائكم فى موسكو أن القيادة المصرية متماسكة ويجمع بينها في قمة السلطة وحدة فى وجهة النظر وأننا غير مترددين بغض النظر عن حركة الأحداث السياسية " .

ولكن الأحداث أظهرت فيما بعد وفاة عبد الناصر أى " حب أخوى " كان يجمع بين صبرى والسادات .

الفصل الرابع

اسرار وفاة مؤسس الماركسية مخزونة .. فى دولاب قديم

* لينين لم يمت بالزهرى .. ولكن بضمور المخ
* أمرنى بريجنيف بتوثيق علاقتى بالأطباء الأمريكيين
* طبيب أمريكى يبتكر مرهماً خاصاً لخداع فيلسوف الحزب
* دبلوماسية الطب السرية مقدمة للوفاق بين موسكو وواشنطن
* " سوسلوف " وكراهية الأطباء

قبل موت بريجنيف ، فارق سوسلوف الحياة ذلك الرجل الذي كان يهابه الجميع كانت له اليد العليـــا في المسائل الايدلوجية للحزب وبالتالي للتنظير للشيوعية العالمية ، وكان بمثابة الرجل الثاني في الحزب ونموذجا للتحجر النظري والفكري والدوغماتية .

إصطدمت به لأول مرة في عام ١٩٧٠ إبان التحضير للاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد لينين ، وكان سوسلوف المسؤول الأول عن الإعداد لهذا الاحتفال قد سمع ان بعض الدوائر المعادية للسوفييت فى الخارج قامت بحملة اعلامية من خلال الكتب والصحافة توكد فيها ان لينين قد عاني من مرض الزهري وهو من الأمراض الجنسية المعدية وان الزهري ومضاعفاته كانت من أسباب عجزه وموته المبكر

كانت تلك الاشاعة التي انتشرت أيضاً إبان سنوات العشرينات قد كذبها الأطباء المعالجون له اتذاك ، وكلفنى سوسلوف بالاستعانة بأنبغ العلماء فى الإتحاد السوفيتي لاعداد تقرير للنشر عن الأسباب الحقيقية لموت لينين ، واكد علي ان هذا التقرير يجب أن يؤدى الى منع كافة التحرشات والتهجمات المرتبطة بمرض أول رئيس للدولة السوفييتية .

أول الصعوبات التي قابلتني فى تلك المهمة هى العثور على الوثائق الطبية الخاصة بالاصابات التى نتجت عن إطلاق النار علي لينين فى عام ١٩١٨ والتاريخ المرضى له مع نتائج فحوصات الاساتذة الأطباء الذين استدعوا من النمسا والمانيا وأيضاً اليوميات التى يدونها الأطباء والممرضون ، ووضعت تحت تصرفى أمكانية الاستفادة من أى أرشيف أو مكتبة محفوظات موجودة فى الإتحاد السوفييتى .

واتضح لى أنه بعد وفاة لينين فى عام ١٩٢٤ لم يهتم احد بصيانة تلك الوثائق .. وكان أرشيف معهد الماركسية اللينينية أكثر الارشيفات التى أطلعت عليها إثارة .. كانت المسؤولة عنه أمراة عجوز ، بمنظرها تمثل الحرس القديم للبلشفيين .. لم تخف المراة دهشتها عندما طلب منها عميد المعهد ان تساعدنى في بحثى

وقالت : " لم اعتقد أبدا يوما ما أن هذه الوثائق سيحتاجها شخص ما .. على العموم لدى دولاب قد يكون فيه ما تبحث عنه " .

وبالفعل كانت دهشتى كبيرة عندما وجدت فى هذا الدولاب ليس فقط يوميات الطبيب الذى يعالج لينين بل والشرائح الهستولوچية المأخوذة من جثته بعد موته وخاصة من الاوعية الدموية .

وكانت تلك الشرائح بمثابة ثروة عظيمة قد وجدناها ، فهى تمكننا أن نحكم بأنفسنا عن طريق الميكرسكوب على العملية الباثولوچية (المرضية) التى أدت الى حتفه .. وهكذا بدأت أملى أحد مساعدى الحقائق المثيرة ، تلك الحقائق التى طالما عشتها بنفسى وعركتها فى مشاكل مرض وموت الزعماء .

كانت يوميات الطبيب عجيبة ومدهشة ، فهو لم يكتف بتدوين الاعراض والمعايير الطبية فقط ولكنه اثبت أيضاً فى مذكراته المشاعر الشخصية للمريض والمشاكل الانسانية العامة المرتبطة به وبمرضه .

أحسست بعزلة لينين ومعاناته فى الفترة الأخيرة من حياته ..كان عاجزا بشكل كامل غير قادر على النطق ولا يستطيع العيش بدون مساعدة الاخرين ..

كان متقلب المزاج تنتابه نوبات الصراخ وكان بالطبع ثقيلا على المحيطين به من ناحية المعاشرة واتصور الان كم عانت زوجته وصمدت فى تلك الفترة .. وكان عمق مأساته انه يحس بانعزاله عن الحياة وعن اتخاذ القرارات فى المسائل السياسية .. لقد حاول ان يفعل شيئا ولكنه لم يستطع .

حقيقة موت لينين

ولم يكن صعبا علينا معرفة أسباب مرض وموت لينين ، فالوثائق الاكينيكية وعينات الانسجة وشهادات الاطباء الذين عاصروا مرضه تم عرضها على ابرز علمائنا فى الطب ، بل أن عينات انسجة المخ قد وفرها لنا مدير معهد أبحاث المخ .. ذلك المعهد الذى أنشئ خصيصا بعد وفاة لينين لدراسة مخ الزعيم .. كل هؤلاء العلماء اجمعوا على صحة التشخيص الذى وضع فى عام ١٩٢٠ وهو إصابة شرايين العنق بتصلب الشرايين من جراء وجود تجمعات دموية ضاغطة على جدرانها ناتجة من إصابة لينين بطلقات نارية لم يتم استخراجها على الفور .

ولم نجد أى دليل على وجود تغيرات مرضية بسبب الزهرى فى

الاوعية الدموية أو انسجة المخ ، ولكننا وجدنا فى المخ انسجة كثيرة ضامرة نتيجة للمرض الاصلى ولكنها لم تصب نسبيا مناطق التفكير والانتقاد الذاتى والذكاء ونتيجة لذلك قلنا ان ظهور المؤلفات الأخيرة لينين كان مرتبطا بقدرة جبارة لعقلــه على تعويض النقـص الذى اصابه .

وقع على هذا التقرير وزير الصحة السوفييتى بتروفسكى آنذاك ولكن كانت فقرتنا الأخيرة فى التقرير سببا فى منع نشره ، بل وفى غضب (سوسلوف) علينا .. عندما عرف فيلسوف الحزب بتقريرنا قال : " هل جننتم .. أنتم تقولون أن الأعمال الأخيرة لينين تمت وهو يعانى من اختلال خطير بعقله وهذا غير صحيح .. ان مجرد اعلانه سيؤدى الى اثارة الاقاويل والمناقشات غير الضرورية " .

ونسيت هذا الموضوع برمته ولكن بعد تسع سنوات فوجئت باندروبوف يتصل بى تليفونيا ليسألنى عن الوثائق الطبية الخاصة بلينين وأيضاً عن تقريرنا الطبى الذى أعددناه .. واتضح أن سوسلوف تذكر الموضوع آنذاك وطلب من رئيس المخابرات أن يعرف هل أطلعنا احدا على المعلومات التى توصلنا اليها..

وعندما اطمأن اندروبوف طلب منى نقل كافة الوثائق المتعلقة

بلينين وستالين إلى اللجنة المركزية .

سوسلوف وكراهية الأطباء

كان سوسلوف يكره الأطباء ، ويشك فى نواياهم . اتذكر أول لقاء به فى بداية السبعينيات عندما ذهبت اليه ضمن (كونصلتو) لعلاجه تلخصت شكواه انذاك فى ظهور آلام بالساعد الايسر عند المشى فى الجو البارد لمسافة مائتى متر . وعندما أجرينا له رسما كهربائيا للقلب اتضح انه يعانى من تصلب شرايين القلب وقصور فى الدورة الدموية التاجية .. أنكر سوسلوف تشخيصنا ورفض رفضا باتا تناول الدواء الذى وصفناه له .. قد يكون ذلك بدافع التشاؤم والنفور من الأطباء والطب أو لانه كان يريد الاستمرار على المسرح السياسى .

كان يرى أن سبب آلام ساعده الايسر هو التهاب أوتاد عضلاته وتكررت الذبحات الصدرية وبدأ ظهور بؤر احتشاء فى عضلات القلـــب وازداد قلقنا بالتالى من أن يكون عناده سببا فى فقدان حياته .

وبالمصادفة كنت قد تعرفت فى تلك السنوات على عالم أميركى

فى مجال العقاقير والادوية وهو فى نفس الوقت من رجال الأعمال ، وبالمصادفة أيضاً بدأ رجل الأعمال الأميركى فى شركته إنتاج مادة جديدة لتوسيع شرايين القلب هى (نيترونج) وقد أحضرنا هذا العقار للاستخدام فى بلادنا وبالفعل لقى أستعماله شعبية كبيرة وطلبا متزايدا . ومن أجل سوسلوف خصيصا سألت رجل الأعمال الأميركي أن يحاول أنتاج هذا العقار فى صورة مرهم وبالفعل بعد فترة أخبرنى الرجل أنه استطاع تصنيع مرهم من هذا العقار ولم يكن يعرف لماذا طلبنا منه ذلك .

قررنا أن نخدع (سوسلوف) فوافقنا على أن ما يعانيه مجرد إلتهاب بسيط باوتاد عضلات الساعد وأقترحنا عليه تجريب مرهم جديد مؤثر لتدليك ساعده وصدقنا سوسلوف واستطعنا بهذه الطريقة ان تصل المادة الفعالة للعقار عن طريق الجلد إلى الأوعية الدموية ثم إلي القلب .

كان تأثير الدواء رائعا فوق ماتصورنا وتوقعنا . ورضى سوسلوف واضاف قائلا لنا : الم أقل لكم أن قلبى غير مريض لقد أستخدمت المرهم وأصبح كل شئ على ما يرام " . فكرت ساعتها ان أقول الحقيقة ولكننى فضلت الصمت من أجل صحته وخوفا من عناده ومكابرته .

وبالفعل ظل سوسلوف راضيا عن صحته ولم يمت بسبب داء القلب بل بسبب نزيف مفاجئ بالمخ . وأثر موته بلا شك على مصير زعامة البلاد ولحزب فقد ذهب من عالمنا رجل ساهم بقسط وافر فى صياغة طرق الحكم والقيادة الحزبية المحافظة العتيقة وصياغة القوالب النظرية الجامدة .

الدبلوماسية السرية

وهنا أريد أن أتوقف لأسرد قصة التعاون فى مجال الصحة بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتى وخاصة بين الأطباء فى مجال معالجة الزعماء السياسيين .. لقد بدأ هذا التعاون منذ زمن طويل فاشترك البروفسور " وايت " العالم الأميركى الشهير مع البروفسور مياسنيكوف فى علاج ستالين ..

ومنذ بداية السبعينيات كانت توجيهات بريجنيف تقضى بتقوية العلاقة مع الأطباء الأميركيين ، وقال لى ذات مرة : " يفغينى .. هل تعرف كم هو عظيم أن تمتلك علاقات طيبة مع الأطباء الأميركيين وسيكون من الاحسن أن تتحول لقاءاتكم الى انجاز عمل مشترك .. لا تتكلم مع أحد من رجالنا حول هذا الموضوع وعليك أن تتكلم فى

زيارتك المقبلة إلى واشنطن مع دوبرنين سفيرنا هناك " .

كنت فى هذا الوقت بعيدا عن مجال السياسة ولم اكن أعلم أننى ساكون جزءا من الدبلوماسية السرية بين البلدين وهكذا استطعت إبرام اتفاقية تعاون فى مجال الصحة بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفيبتى فى تلك الزيارة .. وبدأنا أبحاثا مشتركة بين العلماء الأميركيين والعلماء السوفييت واذا ذكرنا مثلا لذلك ، اتذكر كيف إنتشرت فى الإتحاد السوفيبتى طريقة مراقبة وظيفة القلب على الشاشة الكترونيا تلك الطريقة الأميركية ، وكيف تم تطبيق عقار (اتموزين) المصنع فى الإتحاد السوفيبتى لعلاج مرضى اضطرابات ضربات القلب فى الولايات المتحدة الأميركية .

وقد دعونا كثيرا من الاطباء الأميركين لعلاج بعض مرضانا ورجال دولتنا وهذا يدل على مدى الثقة التى توطدت بين أطبائنا والأطباء الأميركيين .. اذكر مرض زوجة سوسلوف التى كانت تعانى من مرض السكر الشديد ، الذى أحدث تغيرات مرضية شديدة فى قلبها وأعضاء الجسم الأخرى .. كان تشخيص علمائنا سليما ونظام علاجهم أيضاً ملائما ولكن كانت زوجة سوسلوف مثله تماما تلقى بعرض الحائط نصائحنا ولا تلتزم بالنظام الغذائى الذى وضعناه بل ولا تتناول الدواء الموصوف لها .

والحقيقة أن عائلة سوسلوف كانت من بقايا عهد ستالين ، حيث انتشرت الدعايات المضادة والمعادية للأطباء التى تتهمهم بالرشوة والخيانة الطبقية .. كان ذلك فى الفترة ما بين عامى ١٩٣٧ و١٩٥٣ ..وللاسف فالتاريخ الروسى نفسه يحمل لنا كثيرا من التجنيات على الأطباء فعندما مات القيصر الكسندر الثانى قامت الجماهير بمهاجمة منزل ونوافذ بيت الطبيب المسئول عن علاجه .

قررنا أن نستدعى بعد مشاورة أندروبوف أحد الأطباء الاجانب وبالفعل أستدعينا البروفيسور الأميركى (لاون) وكان من أول الأطباء الأميركيين الذين جاءوا إلى موسكو وبالاخص إلى مستشفى الكريملين .. كان حضوره عاملا مساعدا على تغيير الجو النفسى المحيط بزوجة (سوسلوف) .. واضطر سوسلوف إلى أن يلاطفه بل أن يهديه أحد مؤلفاته .. ولكن حتى عندما شفيت زوجته رفض سوسلوف أن يقابله ويشكره على أستشارته الطبية فهو أستاذ قادم من (الجانب الامبريالى) .

وظهر بوضوح التعاون بين الأطباء السوفييت والأميركيين فى علاج رئيس أكاديمية العلوم السوفييتية الأكاديمى " كلديش "الذى فعل الكثير من أجل تقدم البحث العلمى فى الإتحاد السوفييتى .. ففى ربيع عام ١٩٧٢ اشتكى لى كلديش من آلام فى ساقيه بعد

المشى لمسافة خمسين مترا فقط .. واستطعنا بعد اجراء الفحوص والإشعات اللازمة إكتشاف إصابة الجزء الأسفل من شريان الاورطى وشرايين الساقين بتصلب الشرايين .

وطلب منى بريجنيف أن أفعل ما بوسعى لانقاذ كلديش قائلا : "افعل ما بوسعك كى يعيش هذا الانسان " وفعلنا بالفعل كل ما بوسعنا .. اتصلنا بجراح الأوعية الدموية الأميركى الشهير مايكل ديبغى اللبنانى الأصل حيث أنه يمتلك خبرة واسعة فى معالجة مثل هؤلاء المرضى .. وبالطبع لبى النداء "ديبغى"وجاء إلى موسكو ومعه ممرضة العمليات .

وفى الفندق حدثت مفارقة فرؤساء القسم الدولى فى اللجنة المركزية حاولوا أن يتعاملوا معه كما فى الغرب .. وحاولوا اعطاءه مكافأة نقدية مقابل إجراء العملية فغضب (ديبغى) غضبا جما وأتصل بى قائلا : " يفغينى لم احضر إلى هنا من أجل المال ولكن بناء على طلبك لإجراء عملية للاكاديمى"كلديش" فهو قد قام بالكثير من أجل العلم فى العالم ، وكل العالم مدين له بذلك وليس الشعب السوفييتى فقط " .

واستمرت العملية ست ساعات فى مستشفى معهد جراحات القلب

والاوعية الدموية فى موسكو وشارك مع البروفيسور الأميركى أحسن الجراحين فى بلادنا .. فى تلك العملية تم استبدال الجزء المصاب من شريان الاورطى بأنبوب مخلق من أنسجة " الداكرون " وفى أثناء العملية التفت إلى " ديبغى " قائلا بهدوء يحسد عليه (يفغينى هل تعرف أن كلديش لديه حصوات فى المرارة سأستأصل له المرارة أيضاً بالمرة حتى لا تحدث مضاعفات فى الفترة التالية لاجراء العملية وقام باستئصال المرارة) .

تمت العملية بنجاح وشفى " كلديش " وقامت الزعامة السوفيتية بشكر البروفيسور ديبغى على ما قام به .

وتكررت استشاراتنا الطبية للاميركيين وكان من بينها الاستشارة الخاصة بصحة اندروبوف وسأتكلم عن ذلك فى حينه فيما بعد .

ازدادت العلاقات دفئا بين الولايات المتحدة الإتحاد السوفيتى فى عهد الرئيسين بريجنيف ونيكسون .. ففى عام ١٩٧٣ دعا نيكسون بريجنيف إلى بيته فى كاليفورنيا وقام بريجنيف بدوره بدعوة نيكسون إلى قصره الريفى فى القرم .. كانا صديقين حميمين وكانت العلاقات بين الأطباء الأميركيين والسوفييت على أحسن ما يرام .. وكان يشغل أيامها منصب وزير الصحة " واينبرغر " الذى كنت

اعرفه جيدا وساهم (واينبرغر) فى دعم التعاون فى مجالات الصحة بيننا .

ولكن بعد بضعة سنوات تولى (واينبرغر) وزارة الدفاع الأميركية وأصبح عدوا لبلادنا ما هى أسباب ذلك .. ؟

بعض علماء التاريخ يفسرون بدء (الحرب الباردة) من جديد فى بداية الثمانينات بالتدخل السوفييتي فى افغانستان . ولكننى أرى فى ذلك تبسيطا للأمور .. فالولايات المتحدة كانت فى السبعينيات متورطة فى فيتنام ولم يؤثر ذلك على سياسة الإنفراج الدولى .

وأعتقد جازما أن الدور الحاسم الذى يقرر العلاقات بين الدول يلعبه الزعماء ونظرتهم السياسية إلى العالم إن فقدان الثقة والخوف من الآخر يؤدى إلى العدوانية ومن ثم تظهر المواجهة التى تحول الصديق إلى عدو .

الفصل الخامس

أسرار الصراع فى بلاط الحزبين:الشيوعى الفرنسي والألمانى

* أسرار الصراع الخفى على قيادة ألمانيا السرقية عام ٧١
* شرايين المخ تتصلب وأولبريخت يتزلج على الجليد
* لماذا كان الزعيم الألمانى يسب أطباء بلاده ؟
* معركة فى فرنسا على منصب " السكرتير العام للحزب الشيوعى "
* مأزق صعب على مائدة غداء الشيوعيين الفرنسيين

فى اجواء عاصفة وملبدة بصراع خفى على قيادة المانيا الشرقية خلال عام ١٩٧١ جاءت برقية عاجلة من برلين الشرقية تضمنت دعوة لى كى أتوجه فورا إلى المدينة لاجراء الكشف على الرئيس الألمانى الشرقى فالتر أولبريشت .

كان أولبريشت قد بلغ الثامنة والسبعين من عمره يتظاهر بصحة جيدة ويمارس الرياضة بانتظام ويهوى التزلج على الجليد .. وخلف هـــذا النشط الرياضى المخصص لغرض الاستعراض والدعاية ليس إلا ، كان الرجل يعانى من ارتفاع ضغط الدم والضعف و " الدوار " ، وكل تلك الأعراض المرضية ترتبـــط بتصلب شرايين المخ بحكم السن .

وعندما وصلت برلين وجدت الموقف شديد التوتر ، كان أطباء

اولبريشت الألمان وسفيرنا فى قلق .. وعلمت منهم أن اولبريشت يرفض رفضا باتا أن يسمح لأطباء مستشفى مجلس الوزراء الألمانى بالكشف عليه أو معالجته ، واتجه لتلقى العلاج على ايدى أطباء عاديين لا علاقة لهم بجهاز الحزب الاشتراكى الحاكم فى المانيا الشرقية " الحزب الشيوعى " .

ولم يكن موقف اولبريشت بسبب طبى ، بل كان يمكن فى احتدام الخلاف والصراع بين اولبريشت من جانب وإريك هونيكر الذى كان مرشحا لخلافته رئيسا للحزب .. وكان مؤتمر الحزب على الابواب وينتظر الزعيم الألمانى الشرقى ذو الثمانية والسبعين عاما احتمال استبداله .

وكعادة المصابين بتصلب الشرايين لم يستطع اولبريشت ان يحلل الموقف بشكل سليم وظل متشبثا بأنه قادر على العمل بكامل طاقته .. وحتـــى اقتراح البعض بأن يحتفظ اولبريشت بوضع " رئيس فخرى " للحزب أثار غضب الزعيم الألمانى الشرقى العجوز واعتبره كلاما غير لائق .

والطريف أن اولبريشت كان فى ذلك الوقت يعتقد انه المفكر الماركسى الوحيد بين الاحياء ويظن نفسه " لينين " عصره

والأيدولوجى الوحيد للشيوعية فى العالم المعاصر .

وكان إستدعاء أطباء الكرملين فكرة هونيكر نفسه وكانت فكرة صائبة فى رأيى رغم خلفيات الصراع فى الزعامة الألمانية الشرقية .

وجاء هذا الاستدعاء أثر إصابة اولبريشت بنوبة ارتفاع ضغط دم شديد رفض خلالها التوجه إلى مستشفى رئاسة الحكومة واصر على الدخول إلى مستشفى عادى .. وكان تسرب هذه الاخبار قبيل مؤتمر الحزب علاوة على أنباء الخلافات السياسية من شأنه التأثير على صحة اولبريشت نفسه فضلا عن خطورته بالنسبة لمستقبل الخلافة داخل الحزب .

وكان اللجوء إلينا حلا موفقا نظرا لان اولبريشت كان قد امتثل لفحوصنا وعلاجنا من قبل فى موسكو ، ويمكننا إقناعه بضرورة العلاج فى مستشفى رئاسة الحكومة الألمانية الشرقية فضلا عن أن هونيكر سيكون بمقدوره أن يطلع على طبيعة الحالة الصحية لاولبريشت .

وقابلنا " اولبريشت " ونصحناه بأن يبقى عدة أيام قليلة فى العلاج قبل أن يعود إلى بيته مع أنه ظل خلال اللقاء يلعن ويسب أطباء مستشفى رئاسة الحكومة فى بلاده .

وفى مقر السفارة السوفيتية فى برلين الشرقية التقينا مع هونيكر على الغداء ، وابلغناه بأن الوضع الصحى لاولبريشت ليس على درجة كثيرة من الخطورة .

وبعد أيام كان مؤتمر " الحزب الشيوعى " قد انتخب هونيكر زعيما له (سكرتير أول) .

تعليمات بالصمت

وبعد حوالى ثلاث سنوات كان الحزب الشيوعى الفرنسى ، وهو أحد أعرق الاحزاب الشوعية واكثرها شعبية فى أوروبا الغربية يمر بظروف مشابهة لتلك التى حدثت فى ألمانيا الشرقية .

ووجدت نفسى ضمن وفد مكون من ثلاثة أطباء سوفييت منغمسا فى اجواء صراع سياسى كانت ساحته المكتب السياسى للحزب الشيوعى الفرنسى الذى انقسم إلى مجموعتين رئيسيتين : الأولى تنتمى للحرس القديم التى تستمد بريقها من الزعامة التاريخية لموريس توريز ، وكان يقودها " ديوكلو " ، وهى تؤيد الابقاء على السكرتير العام الحالى الحزب روشيه .

والثانية مجموعة الشباب وصغار السن نسبيا بقيادة جورج

مارشيه الذين يطالبون بتغيير استراتيجية وتكتيكات الحزب وإقصاء روشيه .

وقبل أن نسافر من موسكو إلى باريس تلقينا توجيهات من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوڤييتى بالا نتعجل فى الاعلان عن التشخيص الطبى النهائى لحالة روشيه وان نتمهل فى ابلاغ الشيوعيين الفرنسيين بالنتيجة ، وطلبت اللجنة المركزية منا أن نتصل عبر سفارتنا فى باريس باندريه غروميكو وزير الخارجية السوڤييتى وان نبلغه أولا بالحالة الصحية لروشيه ، وبالاجابة على السؤال المهم : هل يستطيع الرجل أن يبقى سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى الفرنسى ؟ وذلك قبل ان ننقل هذه الاجابة للرفاق الفرنسيين .

وكان انطباعى العام من خلال الاتصال مع اللجنة المركزية فى موسكو أن هناك ميلا سوڤييتيا للابقاء على روشيه اذا كانت ظروفه الصحية تسمح بذلك .

وعندما وصلنا إلى باريس وقبل أن نلتقى بروشيه نفسه ، قابلنى ديوكلو زعيم " الحرس القديم " بالحزب الشيوعى الفرنسى ، وكنت من قبل اعرفه مريضا باحتشاء عضلة القلب .

وطلب منى " ديوكلو " الا اخضع لضغوط بعض أعضاء المكتب

السياسى الذين يفضلون إقصاء روشيه .. وقال لى بوضوح : " كن نزيها ومبدئيا " .

وأضاف : (اذا كان روشيه يستطيع الاستمرار فى العمل .. فهذا جيد لنا .. أما إذا كانت هناك خطورة جدية على صحته وحياته فأخطرونا بذلك ولا تكتموا شيئا عنا) .

ولم اغضب من كلمات ديوكلو الصريحة بقدر ما شعرت نحوه بالكثير من التعاطف .. فقد كان ديوكلو نموذجا حقيقيا للشخصية الفرنسية لا للشيوعى البيروقراطى .

ومثل كان الجنوبيين فى بلاده كان متحدثا لبقا تشع كلماته حرارة .. وانذكر أننا كشفنا على صحته فى موسكو عندما رشح نفسه لرئاسة فرنسا من قبل .. وابلغناه حينها أن المعركة الانتخابية وما تطلبه من مجهود وتوتر قد تتسبب له فى أزمة صحية ، وخصوصا أنه كان قد أصيب من قبل مرات عديدة بالذبحة الصدرية واحتشاء عضلة القلب .. ولن انسى كيف جاء رده ساعتها ، قال : " ما الذى تقولونه ؟ اليوم فى عصر مكبرات الصوت (الميكروفونات) أصبحت المعارك السياسية والانتخابية أمراً بسيطا .. نعم كانت المسألة مختلفة حين بدأت حياتى السياسية فى العشرينات . أيامها

كان أهم ما يتطلبه السياسى هو الصوت القوى الجهورى حتى يتمكن من أن يصل بكلماته إلى جميع من فى الميدان أو الإستاد " .

ولقد خاض "ديوكلو" معركة الرئاسة .. صحيح انه لم يكسب ولكنه أدار معركة انتخابية ناجحة تمكن خلالها من أن يحصل على ١٠ ملايين صوت ، ذلك لانه فرنسى صميم قبل ان يكون شيوعيا .. شارك فى المقاومة ضد الاحتلال النازى فى الأربعينيات وتميز باخلاقه النزيهة ومواقفه المبدئية .

وبعد لقائى بديوكلو فى باريس قادنا الرفاق الفرنسيون إلى مستشفى خاص يملكه احد اقرباء روشيه .. وكان الرجل نفسه يرقد فوق سرير وقد بدت عليه علامات الاكتئاب .. ولكنه فور أن رآنا ارتسمت على وجهه علامات السرور وقال : " الان سترجع لى صحتى " هذه الجملة التى ظل يرددها بين حين وآخر متذكرا رحلات علاج سابقة كان قد قام بها إلى موسكو .

وأظهر الكشف الطبى ، أن حالة روشيه خطيرة ، الا أن الشفاء أمر غير ميئوس منه تماما . وأوصينا روشيه باتباع نظام علاجى معين، وأبلغناه انه يستطيع أن يعمل ولكن وفق ضوابط وشروط يجب مراعاتها حتى لا تنتكس حالته الصحية ، وذلك بعد أن تتضح

نتيجة العلاج .

ولقد التزمنا بتوصيات موسكو فلم نبلغ روشيه أو احدا من رفاقة باجابة السؤال : هل يستطيع الرجل أن يستمر فى منصبه أم لا ؟ .

ووراء ذلك كان يدور بخاطرى حقيقة تتجاوز حالة روشيه ذاتها . كان رأيى دائما أن الأطباء لايمكنهم وحدهم أن يأخذوا بمسئولية تقرير مصير ومستقبل مرضاهم . وكل ما عليهم هو أن يبلغوا المريض بأمانة موقفه الصحى ، وان يتركوا للمريض نفسه القرار بشأن المستقبل .

ولكننى أعتقد أنه عندما ينصح الأطباء المريض بضرورة الابتعاد عن المجهود العصبى والانفعالات والاجهاد البدنى فان ذلك يعنى غالباً انه لا يستطيع القيام بمهام رئيس الدولة أو سكرتير عام لاحد الاحزاب .

وكنا نعتقد أن الامور تسير بالنسبة لنا على ما يرام بعد أن ودعنا روشيه فى المستشفى الا أن اللحظات التالية كانت تخبئ لنا " مقلبا صعبا " .

دعتنا زعامة الحزب الشيوعى الفرنسى على الغداء فى نفس اليوم للاحتفاء بقدومنا ولكننا كنا نعرف جيدا أن هذا الغداء لم يكن الا

مجرد حجة لاتاحة فرصة للمكتب السياسى للحزب الشيوعى الفرنسى للاستفسار من الأطباء السوفييت الثلاثة عن حالة روشيه الصحية ومستقبله السياسى .

وبين تلقى دعوة الفرنسيين وموعدها ست ساعات فقط ، كان علينا أن نتمكن خلالها من الاتصال بموسكو وفق تعليمات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى .. وتلك الست ساعات لم تكن بالطبع كافية لان نظفر برد من البيروقراطية السوفييتية فى موسكو وحتى لو كنا محظوظين ، ووجدنا غروميكو وزير الخارجية فإنه لن يحسم الامر بمفرده اذ يتعين عليه ان يجرى الكثير من الاتصالات والمشاورات كما اعتاد.

وعلى الفور ذهبنا إلى السفارة السوفييتية فى باريس بينما كانت تدور فى الرأس تلك المخاوف والحسابات المعقدة .

وعلى باب غرفة السفير " زورين " استقبلنا موظف واخبرنا أن سعادة ـ يقصد السفير ـ مشغول ولاداعى لازعاجه ..، كان هذا الموظف يرى انه على حق ، وربما قال لنفسه أى أمر هام يمكن أن يأتى به اساتذة أطباء ، ولكننا كنا نعرف مدى أهمية ما جئنا لاجله ولم يكن باستطاعتنا ان نخبر هذا الموظف بأن الأمر يتعلق بزعامة

الحزب الشيوعى الفرنسى .

ولم يكن أمامنا من مفر إلا ان ننتظر فى استكانة وبكل أدب .. ولكن ما هى الا عشرون دقيقة وكان البروفسور فيسيلنكو ـ احد زملائى ـ قد عجز عن كبح جماح غضبه هب واقفا من مقعده قائلا بعد أن نظر فى ساعة يده : " مضى وقت يكفيه لتناول الساندوتشات واحتساء الشاى " .

واتجه إلى الباب الواقع إلى جوار غرفة سكرتير السفير وأدار مقبضه فانفتح وتبعناه على الفور إلى الداخل .

كان السفير جالسا وراء مكتبه وامامه كوب من الشاى لم ينته من احتسائه بعد ، وعدد من الأوراق كان ينظر اليها ، رفع السفير رأسه وقال بصوت يعكس الضجر والضيق : " أنا مشغول وطلبت منكم الانتظار " .

وانفجر البروفسور " فيسيلنكو" فى وجهه قائلا : " سيادة السفير لقد كنت دائما اعتقد أن الدبلوماسيين اناس مهذبون ويتميزون باللباقة . ورغم أنك كبير السن فأننى أكبر منك سنا .. واعتقد أنه كان يجب عليك قبل أى شئ أن تدعونا للجلوس " .

ثم نظر إلى كوب الشاى واضاف : ولن يكون الموقف سيئا أن

تطلب لنا بعض الماء كى نشربه .

ويبدو أن ثورة البروفسور " فيسيلنكو " فعلت فعلها .. أجلس السفير " زورين " " فيسيلنكو " وصب له بنفسه بعض الماء واتذكر أنه بعد أن غادرنا السفارة ضحك فيسيلنكو قائلا : " كم هو بخيل سفيرنا .. لم يطلب لنا سندوتشا أو حتى كوبا من الشاى ، ولم يكلف نفسه عناء أن يسألنا :هل نحن جائعون أم لا ؟".

كنت قد شرحت للسفير زورين الموضوع فوافق على الفور على إرسال برقية إلى موسكو بشرط أن تحمل إسمى وتوقيعى .. وبعد أن كتبنا البرقية ظل يتمعن فى كلماتها .. فقلت له بعد أن نفد صبرى : " سعادة السفير لم يعد لدينا الكثير من الوقت .. ويجب أن نخبر الفرنسيين بالرد مساء .. الا يمكنك أن تسرع فى مراجعة البرقية ؟ " .

فأجابنى بهدوء : " وهل تأملون حقا فى أن يصل رد موسكو اليوم ؟ هذا مستحيل أرى أن تعتذروا عن حضور الغداء اليوم وتحاولوا تأجيله إلى الغد " .

وحاولت أن أشرح له عبثا أننا سنسافر غدا إلى موسكو وأنه من الصعب علينا إيجاد حجة نعتذر بها عن لقاء الفرنسيين اليوم .

وعندما أدركنا عبث الاستمرار فى المجادلة معه غادرنا السفارة ونحن ناقمون بعد أن طلبنا منه أن يبلغنا برد موسكو حال وصوله .

وعندما عدنا إلى الفندق الذى نقيم فيه كان مضيفونا فى الانتظار .. والطريف أنهم لاحظوا تعكر مزاج أعضاء الوفد الطبى السوفييتى .. وبدأوا يسالوننا عن السبب ؟ وبالطبع أخفينا عليهم ما حدث لنا فى السفارة .

وعلى مائدة الغداء فى مبنى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الفرنسى كانت أغلبية القيادة تجلس فى انتظار معرفة مصير روشيه، وذلك باستثناء منافسه جورج مارشيه الذى كان مستاء من دعوة الأطباء السوفييت لتقرير مصير الخلاف داخل حزبه .

ومر الغداء بسلام بعد أن اهتدينا إلى حيلة للتسويف واستهلاك الوقت .. تحدثنا باستفاضة من ضرورة اتباع نظام علاج خاص ومكثف لاخراج روشيه من أزمته ، وقلنا إنه بناء على نتائج العلاج يمكن تقرير مستقبل استمرار روشيه فى منصبه القيادى الهام .

والواقع أن تلك الصيغة لاقت قبول كل الاطراف وأزالت الكثير من التوتر الذى أحاط بالغداء منذ بدايته .

وبدأ الحديث على المائدة ينتقل إلى موضوعات أخرى من قبيل

مستقبل نجمة الاستعراض الجـديدة "ميراى ماتيو" .

وصل رد موسكو أخيرا فى ساعة متأخرة من الليل .. وفى تلك اللحظات شعرت بالاسى والشفقة على دبلوماسيينا الذين عادة ينتظرون المشاورات المعقدة التى تجرى فى موسكو . وتساءلت كم من المآزق تعرضوا لها قبل أن تأتيهم التعليمات ؟ وقلت لنفسى : كانت مهمتنا أكثر سهولة مقارنة بما يمر به الدبلوماسيون السوفييت ، فنحن فى النهاية اتخذنا قرارنا استنادا إلى الدواعى الطبية لا الاغراض السياسية .

ولا أعرف حتى هذه اللحظة ما اذا كان للرأى الطبى الذى توصلنا اليه دور فى تقرير مصير الصراع الداخلى فى الحزب الشيوعى الفرنسى أم أن توازن القوى آنذاك داخل هذا الحزب هو الذى كان له الدور الأكبر .

المهم كانت النتيجة أن روشيه بقى سكرتيرا عاما للحزب . أما مارشيه فقد جرى انتخابه نائبا له ، قبل أن يصبح الأخير فى المنصب الأول ولا يزال .

الفصل السادس

بريجينيف .. سنوات المرض والعجز والإدمان !!

* قصة إدمان بريچينيف للحبوب المهدئة
* الممرضة " ن " تعجل بسقوط الإمبراطورية
* أندروبوف يخشى إبلاغ الرئيس بسبب حالته الصحية ويخشى إبلاغ المكتب السياسى خوفاً على رقبته
* يتشاجر في " فلاديفستوك " ويرقص في " وارسو "
* بريچينيف يهرب من التعاسة المنزلية إلى مسكنه الريفى
* فضيحة دبلوماسية في برلين الشرقية

أثناء مراسم دفن جثمان الرئيس السوفيتى الأسبق تشيرننكو اقترب منى أحد چنرالات الجيش ولم أكن أعرفه جيداً .. وقال لى بدهشة ممزوجة بالأسى : (هل تعرف يا يفجينى ـ الاسم الأول للبروفسور شازوف ـ أنت إنسان محظوظ جداً لقد دفنت أربعة أمناء عامين للحـــــزب الشيوعى السوفييتى حتى الآن وما زلت على قيد الحياة) .

وحينئذ قلت لنفســــــى (نعم) عشرين عاماً عشتها كبيراً لأطباء (الكرملين) واحترقت خلالها أعصابى فى مثل تلك المواقف المشابهة لرحيل مسؤول كبير وطوال تلك السنوات لم تكن تضحكنى مثل هذه النكات التى قالها الچنرال .

وخلاصة الحكمة أمام موت الزعماء أن مصير هؤلاء الساسة وخاصة فى بلادنا لا يمكن التكهن به .. فمن يرفع زعيماً إلى القمة فى يوم ما ينزل به إلى أسفل السافلين بدون أى خجل فى يوم آخر .. وهذا تماماً ما حدث مع خروشوف ومن بعده بريچينيف .. وفى تلك الأيام يسأل المرء نفسه : هل كان ممكناً أن نتوقع ما حدث لذكرى لينين الآن ؟ .

لقد مـــــــرت أعوام واختمرت فكرة (البريسترويكا) وانتشر (الجلاسنوست) أو (العلانية) فى كل مكان وتحول بريچينيف من زعيم دولة عظمى إلى شخصية بلهاء مسؤولة عن كل ما يحدث من المآسى والنواقص التى نعانى منها الآن .. ولابد أن أتذكر أكوام الخطابات الهائلة التى تلقيتها فور وفاة بريچينيف عام ١٩٨٢ بعث بها أناس عاديون .. واتهمونا كأطباء بعدم العناية الكافية بصحة بريچينيف وكيف أننا فرطنا فى نصحه بالتزام قسط كاف من الراحة فى ظل أعبائه الضخمة والإجهاد العصبى والعضلى الذى تعرض له .. وكان ذكر اسم ليونيد بريچينيف مشفوعاً حينئذ بأوصاف من قبيل الثورى العظيم والوطنى والمناضل من أجل السلام والشيوعية .

ولا بد كذلك أن أتذكر ماذا كان يقول بعض كتاب الصحافة الذين يتساءلون اليوم كيف لم يعلن أطباء الكرملين المسؤولون عن صحـــة

" بريچينيف " أنه لا يصلح للاستمرار فى رئاسة البلاد ؟ كان أيا من هؤلاء لا يجرؤ أن يقف فى مؤتمر صحفى ليسأل عن صحة بريچينيف مع إننى كنت فى خارج الاتحاد السوفييتى أصطدم بأسئلة الصحفيين الغـــــربيين عن صحة بريچينيف فى كل مؤتمر صحفى كنت حاضراً فيه .

وكان ردى على كل هذه الأسئلة هو أن قسم (أبوقراط) الذى يبدأ به أى طبيب مزاولته للمهنة يؤكد على الحفاظ على أسرار المرضى ماداموا على قيد الحياة .. وأن يكتموا كل شىء من شأنه أن يلحق ضرراً معنوياً أو مادياً بمرضاهم .

وفى هذا السياق أتذكر واقعة حدثت لى أثناء أحد المؤتمرات الصحفية بالولايات المتحدة .. وكان ذلك فى بداية الثمانينيات عندما انتشرت ممثلات الجنس اللطيف النشيطات فى أوساط ممثلى الصحافة العالمية ، ويبدو أن الصحفيات يعتبرن أن اللقاءات الصحفية قد جرى تنظيمها خصيصاً بهدف واحد هو الإجابة على أسئلتهن فقط أو الموضوعات التى تخصهن وحسب .

وقد أصرت إحداهن على مطاردتى بالأسئلة عن الحالة الصحية لبريچينيف وباتت تلح فى السؤال باحثة عن إجابة .. وكان السؤال

شديد الوضوح إلى حد مفزع وربما يفتقد إلى اللياقة : (هل يموت بريچينيف فى المستقبل القريب ؟) وأجبت بدبلوماسية عن مثل هذه الأسئلة وأعدت تذكير الحاضرين بقسم (أبوقراط) وحينئذ رفعت الصحفية عقيرتها قائلة : " ليس هذا رداً ، ماذا يساوى اليوم قسم أبوقراط فى عالمنا" .. وساعتها لم أستطع أن أتمالك أعصابى ونفاذ صبرى وأجبتها : " آنستى المحترمة .. ماذا كنت ستقولين لطبيبك لو أنه أعلن فى مؤتمر صحفى نتيجة فحوصك النسائية " وصمتت الصالة برهة وبعدها انفجر الضحك والتصفيق من الحضور .

بطارية أمريكية لقلب بريچينيف

والآن تتردد أقاويل كثيرة عن طبيعة مرض بريچينيف قبل رحيله قال بعض السياسيين أنها " الذبحة الصدرية " التى تكررت أو قصور فى الدورة الدموية فى المخ بل وذهب بعض الكتاب المعروفين والوثيقى الصلة بالمخابرات السوفييتية (يولان سيمونوف) إلى أن بريچينيف ظل لسنوات يعيش ببطارية كهربية لتشغيل القلب من صنع أمريكى .

ولكننى أؤكد من واقع أننى كنت طبيبه المعالج لسنوات عديدة أن " بريچينيف " لم يعان فى حياته من الذبحة الصدرية .. إلا مرة واحدة

عندما كان سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعى فى جمهورية مولدافيا عام ١٩٥٧ وكانت تلك الذبحة مجرد تغييرات طفيفة فى القلب وأؤكد كذلك أنه لم يكن لدى " بريچينيف " يوماً ما بطارية أمريكية أو روسية للقلب.

لقد بدأت قصة مرض " بريچينيف " الحقيقية فى عام ١٩٦٨ ولكن حتى منتصف السبعينيات تقريباً لم يكن العالم أو بريچينيف ذاته يقدر خطورة المرض وتقدم السن .. وأتذكر أنه فى عام ١٩٧٣ وتحديداً فى ديسمبر استقبل الرئيس الفرنسى الأسبق " چيسكار ديستان " "بريچينيف" الذى قام بزيارة عمل لفرنسا وكنت أذهب بصحبته فى الرحلات الخارجية رغم أن شرايين مخ بريچينيف لم تكن قد تأثرت بشكل كبير بعد .. وفى نهاية المباحثات أعد ديستان مأدبة عشاء على شرف الزعيم السوفييتى بحضور عدد محدود من المقربين إلى الزعيمين .. أما أنا فقد ذهبت مع عدد من أعضاء الوفد السوفييتى فى الوقت ذاته إلى مطعم يقع بفندق على بعد نصف كيلو متر من مقر (رامبوى) حيث يجرى العشاء الرسمى .

وأثناء تناولنا للعشاء فى الفندق صرخ رنين جهاز الاستدعاء الذى أحمله معى أينما ذهبت للطوارىء .. وكان أول خاطر طرأ على ذهنى أن شيئاً ما قد حدث " لربيچينيف " رغم أننى كنت قد تركته فى حالة جيدة .. وعندما وصلت إلى القصر ازدادت دهشتى حين علمت أنهم

بعثوا فى طلبى من أجل " سوفان يارج " وزير الخارجية الفرنسى آنذاك .. كان الفرنسيون واثقون فى صحة قياداتهم الشابة ولذا لم يقيموا نقطة رعاية طبية وإسعاف بالقصر . أما سيارة الإسعاف فلم تصل إلى المكان إلا بعد أربعين دقيقة من استدعائى .

ما الذى حدث أثناء العشاء ؟ لا أدرى ، ولكن كل ما أعلمه أن " سوفان يارج " أصيب بإغماء وفقد وعيه وجرى نقله محمولاً إلى غرفة مجاورة لقاعة العشاء .

وأجريت كشفاً على الوزير الفرنسى بعد أن حصلنا على إذن خاص من الرئيس "ديستان" حيث كان رجال الحرس الفرنسيون قد منعوا دخولنا إليه دون هذا الإذن .. وعندما قابلت بريچينيف فيما بعد وأخبرته أن حالة " يارج " كانت نتيجة لإرهاق وتوتر من العمل ليس إلا. انتهز الفرصة ليقول : " انظر كيف أن هذا الرجل صغير السن ولكنه ضعيف لم يحتمل هذا المجهود " كان واضحاً أنه يريد أن يقول : "أترى كيف لا يحتمل الصغار مجهود الحياة السياسية فما الذى تريده منى إذن " ؟

ولكن قصة مرض بريچينيف لم ترتبط بمشاكل السن ومعاندة السياسيين لتاثير الزمن على وظائف الجسد والقدرة على الوفاء

بالمسؤوليات فلقد كانت لمرض بريجيتيف أبعاد أخرى خفية .. ولنبدأ القصة من أولها بعيداً عن الأقاويل غير الصحيحة ونسج الخيال .

ربيع براغ والحبوب المنومة

فى أحد أيام شهر أغسطس ١٩٦٨ وتحديداً خلال أزمة " ربيع براغ " كانت حرارة ما يحدث فى تشيكوسلوفاكيا قد انتقلت إلى داخل اجتماعات الكمتب السياسي للحزب الشيوعى السوفييتى فى موسكو .. جلسات متوالية مطولة ومناقشات ساخنة حول ردود الفعل التى يتعين اتخاذها تجاه ما يجرى على ضوء احتمالات تطور الأحداث .. وحقيقة الأمر أن القيادة السوفييتية لم تكن على رأى واحد بشأن ما الذى يجب عمله . وعلى سبيل المثال كان أندروبوف رئيس جهاز المخابرات خائفاً من تكرار أحداث المجر عام ١٩٥٦ حين اضطرت القوات السوفييتية للتدخل ووراءها قوات حلف وارسو .. ووسط هذه النقاشات المحمومة فى موسكو أخذت القيادات السوفييتية ترسل تحذيرات متتالية إلى براغ من مغبة تطور الأحداث .

وفى إحدى أمسيات يوم الأحد من شهر أغسطس ذهبت أنا وابنتى إلى السينما حيث كانت قيادتا الحزب ين الشيوعى والتشيكى مجتمعة

فى لقاء ساخن (بالكرملين) وبعد عشرين دقيقة من بداية الفيلم اقتربت منى امرأة مجهولة وطلبت منى الخروج من السينما على الفور .. وفى الخارج كانت تنتظرنى سيارة وخلال خمس دقائق فقط كنت فى مقر الإدارة الرابعة التابعة لوزارة الصحة والمختصة بالرعاية الطبية لكبار رجال الدولة وأصدقائنا الأجانب .. وكان الصمت مخيماً ولم يستطع أحد من الحاضرين أن يخبرنى ماذا حدث ؟ على وجه السرعة انطلقت مع واحد من أشهر أطبائنا فى الأمراض العصبية إلى مبنى اللجنة المركزية حيث وجدنا بريچينيف راقداً فى غرفة الاستراحة وهو غير قادر على الحركة .. وكان يجيب على أى سؤال له ببطء شديد وبدا غير قادر على أى استجابة .

وأخبرنا الطبيب الذى كان يصاحبه فى تلك اللحظة بما حدث قال أن بريچينيف أثناء المباحثات بدأ نطقه يتعثر فجأة وتخرج الكلمات من فمه بصعوبة وبدا الشحوب والضعف يبدو عليه حتى أنه استلقى على كرسيه تماماً ..

وأخذ الطبيب الأخصائى فى الأعصاب فى فحص بريچينيف دون أن يعثر على أى سبب عضوى لما حدث .. بينما كان مساعدو الزعيم السوفييتى يلحون فى السؤال : هل سيتمكن بريچينيف من العودة إلى المباحثات؟

وكان الأمر بالفعل محيراً لنا .. بريچينيف يحرك شفتيه بكلمات غير مفهومة وكأنه مستغرق بين اليقظـــة والنوم ولا توجد أى أعراض (إكلينيكية) واضحة أمامنا لما يحدث .

ولكن طبيب الأعصاب المخضرم قال بدبلوماسية : لو كان "بريچينيف " لم يمر بمفاوضات مجهدة ومتوترة لقلت على الفور أن هذا الأمر أشبه بحالة شخص مرهق ذى جهاز عصبى ضعيف تناول حبوباً منومة .

عندئذ صاح الطبيب الخاص لبريچينيف : " صحيح .. عندما يتعكر مزاج بريجينيف فإنه يصبح غير قادر على النوم .. فيأخذ حبة أو حبتين من عقار منوم فتهدأ أعصابه ويستقر مزاجه الغاضب ويبدأ فى النوم ويصحو فيما بعد فى حالة جيدة ولا يتذكر ما حدث " ؟

وأضاف الطبيب : " وأعتقد اليوم أن أعصابه قد توترت ولجأ إلى حبة أو حبتين وربما أكثر ويمكن أن تكون تلك الحالة التى يمر بها الآن رد فعل على تناول المنوم أثناء انعقاد المكتب السياسى " .

وبالفعل كان هذا التصور صحيحاً ..

كوسيجن متوتراً

. ودخل علينا " ألكسى كوسيجن " رئيس الوزراء السوفييتى آنذاك متوتراً وخائفاً يسأل عن حالة " بريچينيف " .. كان يخشى حدوث قصور بالدورة الدموية بالمخ .. وجلس " كوسجين " بجانب "بريچينيف" الذى بدأ تدريجياً يتماسك ويعود إلى الكلام بصورة طبيعية .. وطمأنا كوسيجن أن الحالة غير خطرة وأن ما يمر به بريچينيف مجرد تعب وإنهاك وسرعان ما يعود الرجل إلى حالته ويواصل المباحثات .. وفعلاً بعد ثلاث ساعات خرج بريچينيف معافى ليستمر فى المشاركة فى الاجتماعات .

وواقع الأمر أننا أقدمنا على قدر من المخاطرة الطبية فى تلك الأزمة فقد استبعدنا بكل جرأة حدوث قصور بالدورة الدموية وهو قصور قد لا يمكن تشخيصه فى بعض الحالات .. وكانت احتياطات السلامة التامة تقتضى حينئذ نقل بريچينيف إلى المستشفى لزيادة الاطمئنان ولكن الاعتبارات السياسية والاجتماعات الدائرة وتطور الأزمة فى براغ كانت تتطلب تلك المخاطرة المحدودة .

ولكن أزمة أغسطس ١٩٦٨ التى تعرض لها " بريچينيف " كانت أول أجراس الخطر وأول علامات الضعف للجهاز العصبى وعدم قدرته على تحمل الأدوية المهدئة والمنومة .

ومنذ ربيع عام ١٩٧٣ بدأت تظهر على " بريچينيف " من وقت لآخر .. نوبات ضعف الجهاز العصبى المركزى مع مظاهر الأرق الشديد نتيجة للإنهاك الجسمانى .. ودخل بريچينيف فى دوامة تعاطى الحبوب المهدئة والمنومة للتغلب على هذه الحالة . عندما كنا ـ نحن الأطباء ـ نتحكم فى جرعات تلك العقاقير المهدئة ونشرف بحزم على علاجه كان " بريچينيف " لم يتمسك بإخفاء حالته عن عدد من أصدقائه المقربين .. هؤلاء الذين أسهموا فى النهاية برفق فى الانزلاق إلى الاكتئاب والخمول .. حيث قام بعضهم بدافع حسن النية والرغبة فى المساعدة أو بدافع النفاق المدمر بإمداد " بريچينيف " بالنصائح الخاطئة والعقاقير المهدئة والمنومة .

يتشاجر فى " فلاديفستوك "
ويتراقص فى " وارسو "

وبين عامى ٦٨ و ١٩٧٤ تطورت حالة " بريچينيف " الصحية إلى الأسوأ إلى أن بدأت تظهر عليه أعراض العجز عن التفكير والتحليل والاستجابة السريعة للمؤثرات الخارجية .. وأصبح من الصعب إخفاء النوبات المرضية التى تصيبه وبدأنا فى اختلاق الأعذار مثل قصور

الدورة الدموية فى المخ والأزمات القلبية وأحياناً أعطينا نوبات المرض طابع الأزمات السياسية لإخفاء ما انزلق إليه بريچينيف .

وفى عام ١٩٧٤ انعقدت القمة الأمريكية السوفييتية فى "فلاديفستوك " بالاتحاد السوفييتى وكان أمام الجميع مباحثات صعبة لتجنب مخاطر المواجهة العسكرية وتقليص الأسلحة الاستراتيچية وكانت تلك المحادثات تحيطها أجواء عدم الثقة التى صاحبت الحرب الباردة ، كان كل طرف يخشى أن يخدعه الآخر ويخفى عنه إمكانيات عسكرية مدمرة تعود للظهور فى أوقات الأزمات الحرجة . ووسط هذا المناخ الصعب بدأت نوبات المرض تظهر على بريچينيف .

وبينما كانت المباحثات السوفييتية الأمريكية تتوقف مراراً كانت صورة السوفييت والأمريكيين على هذا النحو .. يخرج أعضاء من الوفد الأمريكى متعجلين بين حين وآخر للاتصال مع واشنطن عبر سيارة مدرعة أحضروها إلى الشارع خصيصاً لهذا الغرض وبهدف الاستعانة بمعلومات وخبرات المتخصصين فى العاصمة الأمريكية .. بينما كان "بريچينيف "على الجانب الآخر .. يتجادل ويتشاجر مع وزير دفاعه " جريشكو " عبر تليفون خاص .

كان الزعيم السوفييتى عصبياً ومتوتراً وغاضباً أحياناً على كل من

حوله وأذكر أن رئيس الحرس الخاص " لبريچينيف " عندما رآنى حينئذ قال لى بصوت هامس "يفجينى .. أنه على حافة الانهيار" ..

وبعد وداعنا للوفد الأمريكى فى قمة " فلاديفستوك " سافر "بريچينيف " إلى منغوليا جنوباً بالقطار .. وفى القطار فاجأته نوبة مرض شديدة .. واتصلت من القطار " بأندروبوف " وقلت له : " لقد انهارت كل آمالنا وجهودنا بالحفاظ على سرية مرض الزعيم .. لقد أصبح مرض " بريچينيف " معروفاً لكافة أفراد الوفد المرافق له وليس لرجال حراسته وأطبائه فقط كما حرصنا من قبل " .

ولقد دفع تطور حالة بريچينيف الرئيس البولندى السابق " جيرك " أن يصف الزعيم السوفييتى السابق فى مذكراته بأنه بدا كشخص غريب الأطوار وغير مسؤول .. وأنه بينما كانت وارسو تستقبل زعيم الاتحاد السوفييتى بحفاوة بالغة فى منتصف السبعينيات فى الشوارع والميادين وداخل الحجرات الرسمية الواسعة كان "بريچينيف" يقف فى افتتاح الاجتماع يشيح بيديه ويطيح بهما وكأنه " مايسترو " يقود الصالة أثناء غناء نشيد الأممية .. ويضيف " جيرك " : " كم كنت خجولاً من أجله " .

ولن أطيل فى شرح ما حدث ليس لأن " جيرك " قد كتبه من قبلى

ولكن لأن ذلك الموقف المؤسف تكرر عدة مرات فى لحظات مصيرية وهامة .

وكان قدر " بريچينيف " المميت أن يلتقى بإحدى الممرضات " ن " ولن أذكر اسمها لأنها مازالت على قيد الحياة ولديها بنت تعيش بيننا .. ولكن لتلك السيدة جانب كبير فى قصة انهيار صحة الزعيم السوفييتى الراحل .. وبعد أن أروى أجزاء من تفاصيل تلك القصة سأترك للمؤرخين والسياسيين الذين يبحثون فى الوثائق والأرشيف عن أسباب سقوط " بريچينيف " كل هذه التفاصيل والوقائع التى أدت فى النهاية ببلد اشتراكى عظيم لما حدث له فى نهاية الثمانينيات .

فى أحد أيام ١٩٧٣ جاءنى صوت اندروبوف رئيس جهاز المخابرات السوڤييتية حينئذ متوترا عبر خطوط التلفون .. وكان توتر صوت اندروبوف يعكس عادة ما يعانيه الرجل من صراع حين يكون عليه ان ينقل رغبات وأوامر بريجنيف التى تتعارض مع قناعاته وتخالف ضميره .

طلب اندروبوف نقل رئيسة الممرضات التى تعمل فى إدارتى على رعاية صحة بريجنيف خلال ٢٤ ساعة فقط إلى أى عمل ومكان أخرين .

وعندئذ بدأت أسأل عن سر هذا الطلب العاجل والغريب ... كانت رئيسة الممرضات التى تحظى باحترام فى مجال عملها ، والتى ساهمت فى مجهود الحرب العالمية الثانية تشرف على الممرضة الشابة (ن) التى استطاعت أن تتقرب إلى بريجنيف وتمكنت عبر هذه العلاقة الغريبة أن تحصل على امتيازات لأسرتها ، بينها شقة بثلاث غرف فى أحد المساكن المخصصة للجنة المركزية للحزب وترقى زوجها بسرعة الصاروخ من مجرد ضابط عادى إلى عقيد بالمخابرات ويبدو أن رئيسة الممرضات التى تعرف عملها عن وجه حق لم تكن ترضى بتجاوزات الممرضة (ن) .

سؤال تهكمى ؟!

ولذا فقد أجبت على طلب اندروبوف بسؤال يحمل نبرة التهكم : هل يدخل فى اهتمامات ومسؤوليات رئيس مخابرات الدولة مسائل صغيرة من قبيل تنظيم عمل الممرضات ؟. ولكنه أجابنى بغضب : "هذا الطلب ليس طلبى الخاص ، ولكن يحسن لك أن تنفذه بدون أى إعتراض) .

وشعرت بالاسى لما وصلت اليه الاحوال .. وسعيت على الفور

. لمقابلة الطبيب المقيم لمتابعة حالة بريجنيف .. وأدركت أنه ترك كل شئ لـ (ن) التى استطاعت التقرب إلى بريجنيف ، ويبدو أن هذا الطبيب لم يلحظ بسبب رقته الزائدة وأدبه الجم وشخصيته غير الحازمة كيف تسللت الممرضة المحتالة إلى قلب الرجل وأخذت تنفرد به .. وتقصى أحدا أيا كان بمن فيهم الطبيب عن متابعة حالة بريجنيف .

يبدو أنها استغلت ضعف بريجنيف خاصة أثناء فترات الارق ونوبات الخمول التام .

وقمت بزيارة بريجنيف لأناقش هذا الطلب الغريب ، ولكنه رد بصوت غاضب ورفض الحديث عن ممارسات تلك الممرضة وانعكاس ذلك على نظام العلاج الذى يخضع له .. واخيرا كان لبريجنيف ما أراد .

ولأننى كغالبية الأطباء رجل عملى أبحث دائما عن خلفيات تطور الاحداث من منطلق الحقائق المحددة وتصرفات شخصيات معينة فلا زلت أرى أن تأثير الممرضة (ن) القاتل على بريجنيف والذى أدى إلى التعجيل بأنهياره هو حقيقة موضوعية مجردة أفضت إلى سقوط زعامة البلاد وساهمت فى ذلك على نحو أكثر فعالية من عشرات

الخطب التى القاها (المنشقون) فى الإنهيار وفضلا عن المرضة "ن" كان هناك الاصدقاء الذين لم يكتفوا باستغلال نقاط ضعف بريجنيف ثم عملوا على استفحالها .

الزوجة لا تتدخل

وكان على حينئذ أن أبحث عن حلفاء فى الصراع من أجل صحة بريجنيف والحفاظ على نشاطه وقدرته على العمل .. وبدأت بعائلة بريجنيف ولجأت تحديدا إلى زوجته " فيكتوريا " واثناء فترة مرض بريجنيف توطدت بينى وبين السيدة فيكتوريا علاقات حسنة كانت تسمح بأن أتحدث اليها فى هذا الموضوع الشائك .. ولكننى اندهشت لرد فعل زوجة بريجنيف .. لقد استمعت السيدة بهدوء شديد لملاحظاتى حول التأثير القاتل للمرضة "ن" على زوجها والتغيرات التى بدأت تطرأ على جهازه العصبى المركزى ، والتى يمكنها أن تفضى إلى انهيار شخصيته واجابتنى على كل ذلك بكلمتين اثنتين فقط قالت :

" انتم اطباؤنا . هذه مشكلاتكم ولا أستطيع أن أفسد علاقتى بزوجى " .

كانت فيكتوريا ـ مع ذلك ـ عماد الاسرة بحق رغم مرضها الدائم، ولم تكن تهتم بالتدخل فى شؤون السياسة أو الدولة مثلها مثل زوجة جورياتشوف .. وكان بريجنيف من ناحيته قليل الاهتمام بشؤون البيت .

وفى الفترات الأخيرة ، كان بريجنيف ينتهز أى فرصة للانطلاق إلى بيته الريفى حيث رحلات الصيد .. وأصبح هذا البيت بمثابة منزله الثانى حتى أنه كان يسافر اليه فى نهار الجمعة ويعود مساء الاحد ، ولاشك أننى أرى اليوم أن تعاسة بريجنيف فى حياته الزوجية كانت أحد أسباب مرضه .. ويبدو أنه لم يكن يرتاح بحب أحدا من عائلته سوى حفيدته .

وإلى جانب حراسة المخلصين الذين اثبتوا فى أيام شيخوخته أنهم حلفائى الحقيقيين فى معركة الصحة والمرض ، كان على أن أبحث عن أخرين غير عائلته ، التى اتخذت موقفا سليبا .

اندروبوف لم يفعل شيئاً

واتجهت إلى الشخص الوحيد فى زعامة البلاد الذى ربطتنى به علاقات ثقة متبادلة ، وكان ذلك هو " اندروبوف " .. وكنت اعتقد

أنه الشخص الوحيد الذى يمكنه بما له من نفوذ واسع وثقة لدى "بريجنيف " أن يضع أمامه بصدق صورة المستقبل المرعبة التى تنتظره اذا لم يستمع إلى نصائحنا الطبية .

وانتهزت تواجد اندروبوف كعادته أيام السبت فى مقر عمله بجهاز المخابرات ومبناه المسمى (البيت الكبير) على عكس غالبية أعضاء القيادة السوفييتية الذين يهربون من العمل مثلما كان يهرب بريجنيف إلى رحلات الصيد للسبب ذاته عدم الرغبة فى البقاء مع الزوجة والعائلة .

ولقد اطلعت اندروبوف فى ذلك اليوم على حقيقة الموقف الخطير الناجم عن أحوال بريجنيف بل واقترحت عليه أن يخبر المكتب السياسى أو بعض أعضائه بحقيقة ما يدور .. وهنا اختفت الابتسامة من وجه أندروبوف وارتسمت علامات الخوف بدلاً منها .. وبدأ يتكلم وكأنه يحدث نفسه قال : " أولاً لا أحد غيرك يمكنه أن يتحدث مع بريجنيف بشأن الالتزام بنظام العلاج وتناول الأدوية الموضوع له .. لأننى لو تحدثت معه فى ذلك سوف يرد متسائلاً : وكيف علمت بذلك ؟ وإذا قلت له أننى علمت منك سوف تخوف من اللقاءات التى تجرى بيننا وأحاديثنا بشأن صحته وساعتها سيفصل بيني وبينك حاجز يصعب تجاوزه .

وأضاف اندروبوف : وثانياً لا يمكنني أن أبادر بإبعاد المرضة (ن) عنه .. وأشار إلى أنه كان قد تحدث في السابق عرضاً مع بريجنيف عنها وعن زوجها ، الذي يعمل لديه في جهاز المخابرات كضابط صغير ، والذي أخذ يتفاخر ويشيع الأقاويل عن علاقة زوجته الخاصة بالأمين العام للحزب الشيوعي . وصمت اندروبوف برهة ثم قال : هل تعرف ماذا قال لي بريجنيف حينئذ .. ؟ قال لي " هذا شأني وأرجوك لا تحاول أن تتعرض لهذا الموضوع ابداً مرة أخرى " .

وأضاف اندروبوف مؤكدا : " لا يمكنني أن أساعدك بالقطع .. أما عن إبلاغ المكتب السياسي بحقيقة الموقف فلا أظن أنني سأجد أحدا داخل المكتب السياسي يتفهم حسن النية وراء ما سنبلغهم به أو يفسر ذلك باعتباره اهتمام وحرص على مصير بريجنيف .. واعتقد انهم سيفسرون ما سأقوله لهم باعتباره دسيسة دنيئة ويخشى أن يفسر ذلك في النهاية على أنه تسرب معلومات طبية لمرض وضعف بريجنيف مما يؤدى إلى تأجيج الصراع على السلطة داخل المكتب السياسي " .

وكان اندروبوف مقنعا وكلماته منطقية ولم يكن أمامي الا أن أوافقه على تقييمه .. ولكنني عندما إنفردت بنفسي أدركت أن اندروبوف كان يخشى المخاطرة بمنصبه ومركزه على رأس السلطة في

موسكو خصوصاً وأنه كان قد انضم للتو إلى عضوية المكتب السياسى للحزب .. وربما كان اندروبوف يرى فى بريجنيف فرصة لان يكون قويا ومهابا على رأس جهاز المخابرات .

وفى نهاية السبعينيات لم يكن اندروبوف وحده يعلم بحقيقة وضع بريجنيف وكان من بين الذين يعرفون بتدهور صحة بريجنيف وضعفه أزاء المرضة (ن) والحبوب المنومة والمهدئة كل من سوسلوف والماريشال استينوف وتشيرنينكو وتيخنوف وغيرهم من أعضاء المكتب السياسى بل أننى بعثت بتقارير طبية رسمية عن حالته إلى المكتب السياسى .. ولقد كنت ولازلت دائما من انصار احترام (قسم أبو قراط) الذى يؤديه الطبيب فى بدء ممارسته للمهنة متعهدا بالحفاظ على أسرار مرضاه . ولكن الا يتعارض أحيانا واجب الطبيب مع الواجب الوطنى .

بريجينيف : انت تبالغ

وبعد حديثى إلى اندروبوف كان على أن انتهز الفرصة لاعود بالموضوع إلى بريجنيف نفسه ، ولما علمت أن بريجنيف بمفرده فى منزله الريفى ذهبت اليه فى التو .. وبدأت بحذر أتحدث عن الأهمية

السياسية لان يحتفظ بصحته وهيبة شخصيته .. وحذرت من أن ظهور أعراض الضعف البالغ وتصلب شرايين المخ لن يمكن اخفاؤها على الاصدقاء أو الاعداء بل والشعب أجمع .

وأجابنى بريجنيف قائلا : " أنت تبالغ فى كل شئ .. فالرفاق جميعهم على علاقة طيبة بى ، وانا واثق من أنه لا يوجد واحد بينهم يفكر فى معارضتى . أنهم يحتاجوننى .. ورغم أن كوسيغين ـ رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ـ يختال بنفسه ودائم الظهور بدون مناسبة أو بمناسبة أمام وسائل الاعلام الا أنه لا يتمتع بتأييد المكتب السياسى .. أما بودغورنى فهو صديقى ونحن صرحاء فيما بيننا .. وانا واثق من أنه رجل حسن النوايا " (يلاحظ أن بريجنيف بعد ثلاث سنوات قال عكس ذلك) .

وأضاف بريجنيف : " بالنسبة لنظام العلاج فسوف احاول الالتزام به حتى ولو تطلب ذلك السباحة يوميا أما الاقراص المهدئة فعليك أن تفكر مع العلماء الاخرين فى طريقة تنقذنى من الارق ، الذى أعانى منه .. وحقيقة الامر أن بريجنيف استطاع أن يفى بوعده حتى أخر أيامه بالنسبة لمسألة السباحة فقط " .. ثم التفت بريجنيف إلى المسألة الأكثر حساسية ، وقال لى : " ولكنك تهاجم السيدة "ن" بدون وجه حق .. هى تساعدنى فقط .. وعلى أية حال شكرا

لاهتمامك بى وبمستقبلى " .

وكان هذا هو أخر حديث أتسم باللباقة وسعة الصدر بينى وبين بريجنيف .. وهو أخر حديث استطاع فيه بريجنيف أن يتقبل منى بعض الانتقادات .. وبالفعل استطاع بريجنيف لمدة عام الصمود ـ أى حتى عام ١٩٧٤ ـ وبدا بصحة جيدة وقادر على العمل والتفكير بشكل تحليلى .. ولكنه عاد فجاة إلى التدهور وتحديدا فى شهر يوليو ، حين كان عليه أن يزور بولندا للتهنئة بمرور ٣٠ عاما على إقامة " الجمهورية الشعبية " هناك . واخبرنى طبيبه المعالج أنه وجده فى حالة ضعف شامل وخمول شديد حين ذهب اليه فى منزله الريفى وكان الغاء زيارة بولندا غير ممكن .. ولذا بذلنا جهودا خرافية للخروج من هذا المازق الحرج ، وفى أول أيام الزيارة لوارسو بدأ بريجنيف فى حالة جيدة بعد الجهد الشاق الذى بذلناه معه .. وفى اليوم التالى كان من المقرر ان يخطب فى الاحتفال .. ورجوناه ان يتبع النظام المسبق الذى وضعناه له .

وكانت الممرضة "ن" حاضرة وفوجئنا به اثناء الحديث يصب علينا عاصفة عاتية من الغضب وطلب منا أن نتركه وشأنه بل هددنا وتوعدنا .. وفى مساء اليوم ذاته حاولنا مقابلته ولكنه كان قد اصدر أوامره لحراسه بمنعنا من زيارته .

وكان بريجنيف قد خرج على القواعد ونظام العلاج وتعاطى الاقراص المهدئة مرة أخرى ربما من أحد أصدقائه أو بالأحرى من السيدة "ن" التى بقيت معه .. وبالطبع كان بريجنيف فى حالة يرثى لها فى الصباح .. وتسبب فى حرج بالغ عند افتتاح الاحتفال اذ وقف يطوح بذراعيه ويشيح بيديه أمام الحضور وكأنه " مايسترو " .

وكان بريجنيف فى بعض الاحيان يعى أنه يقتل نفسه فيوافق على دخول المستشفى أو دار النقاهة فى " بارفيخا " ولكن عندما يتماثل للشفاء .. وتعود اليه عافيته كان سرعان ما يرجع إلى سيرته القديمة .. يهرب إلى منزله الريفى فى " زفيرفا " حيث تنتظره الممرضة (ن) مع الاقراص المهدئة .

ومن بين أكثر اللحظات المثيرة للقلق بل والفزع بالنسبة لنا جميعاً وخصوصاً رجال حرسه الخاص عندما كان بريجنيف يصر على أن يقود السيارة بنفسه إلى منزله الريفى .. والمعروف أن بريجنيف كان مولعا بقيادة السيارات منذ الحرب العالمية الثانية ، بل والقيادة بسرعة فائقة ، ولقد تسبب المرض وارتخاء عضلاته وضعف صحته العام فى أن يفقد سيطرته بين حين وأخر على عجلة القيادة وبالتالى إلى حوادث عديدة .. وكادت سيارته أن تقع فى أحد المنحدرات الجبلية وهو فى طريقه إلى شبه جزيرة القرم .. ولقد كان عدد من حراسه

الشخصيين يتندرون من حين لاخر كيف أنهم بقوا بمعجزة على قيد الحياة بعد رحلاته الخطرة .

وعلاوة على تأثير تصلب الشرايين بالدماغ على وظائف التفكير فقد بدأ بريجنيف يصبح فريسة محاولات من الرومانسية والعاطفية المبالغ فيها . كان يتذكر أيام الحرب والسنوات القليلة التى تلتها تلك الايام التى ترتبط بشبابه .. وإثناء اقامته بمستشفى (بارفيجا) كان يطلب كل يوم مشاهدة فيلم غنائى للمثلة النمساوية العالمية ماريكى روك .. وقد شاهد بريجنيف فى تلك الفترة ١٢ فيلما كان يغرق بعد كل واحد منها فى ذكريات رومانسية شديدة .

وواصلت حالة بريجنيف تدهورها فى الوقت الذى تزايد فيه نفاق شلته المقربة إلى حد أنه بات لا يعير اعتبارا أو حسابا للاخرين . ولقد اتصل بى ذات يوم بولانسكى احد أعضاء المكتب السياسى للحزب غاضبا وعاتباً قال " .. كيف يمكن لمرضة من مؤسستكم أن تجلس حول طاولة واحدة مع أعضاء المكتب السياسى ، وهم يناقشون أدق شؤون الدولة بل وتتدخل فى الحديث بوقاحة ؟ " وبالفعل كانت المرضة (ن) قد تجرأت بمرافقة برينجيف على الجلوس فى منزله الريفى إلى اجتماع خاص ضم بولانسكى وبودغورنى .

ولقد قلت لبولانسكى فى مكالمته الهاتفية : " نعم معك كل الحق فى أن تغضب ولكن هل قلت ذلك لصاحب البيت فأجابنى : " نعم حاولت أن أبلغ بريجنيف بغضبى بطريقة ما ولكن قبل كل شئ عليك أنت يا يفغينى أن تبعدها من هناك وتحذرها بأن تلتــزم بآداب مهنتكم " ..

ولست أعرف ما اذا كان بولانسكى قد أبلغ بريجنيف بسخطه أم لا .. ولكن على أية حال فقد انتابت علاقتى به فيما بعد البرود ثم انقطعت اتصالاتنا تماما .

سبق توقيع اتفاق هلسنكى للأمن والتعاون الأوروبى فى صيف عام ١٩٧٥ فترة باردة فى تطور العلاقات الأميركية ـ السوفييتية .. وتوترت الأجواء بين موسكو وواشنطن إلى حد الاعتقاد بأن مسيرة الوفاق والانفراج قد انهارت أو تجمدت ؛ وهى المسيرة التى ارتبطت بمباحثات الحد من التسليح الاستراتيجى والقمتين السوفييتية الأميركية فى العام السابق ١٩٧٤ .

ووسط هذه الأجواء كان حدث توقيع اتفاقيـة هلسنكى شديد الأهمية .. وكان مستوى الاحتفال به يتعين أن يجرى بحضور الرؤساء وقادة الدول المشاركة .. وكان علينا نحن الأطباء فى

الكرملين أن نخوض صراعاً مع الزمن لإخراج بريچينيف من حالة الاكتئاب والضعف التى يمر بها .

ونجحنا فى تحقيق معجزة وأرسلنا بريچينيف إلى هلسنكى عاصمة فنلندا المجاورة للاتحاد السوفييتى بالقطار ؛ ولإخفاء مرض بريچينيف عن البلاد والعالم الخارجى اختصرنا الوفد المرافق له إلى أقل عدد ممكن .. وكان بصحبته فى القطار أندريه غروميكو وزير الخارجية فقط وهو كذلك كان عائداً لتوه من المرض .

وأتذكر كيف كان الدبلوماسيون السوفييت ينظرون إلينا فى هلسنكى عندما لم يروا إلى جوار بريچينيف سوى الطبيب ورجال حراسته فى صالة الاجتماعات بدلاً من الدبلوماسيين رفيعى المستوى.

وربما فكر موظفو وزارة الخارجية السوفييتية أن الدافع وراء ذلك هو رغبة بعض المقربين من بريچينيف البحث عن المجد فى تلك اللحظات والاحتفاظ بصورة تاريخية لهم وهو إلى جوار بريچينيف فى تلك المناسبة الدولية .

ولكننا ساعتها لم نكن نفكر إلا فى شىء واحد هو : كيف تنتهى هذه المناسبة سريعاً قبل أن يغافلنا بريچينيف ويبتلع أياً من العقاقير

المنومة والمهدئة التى اعتادها .. ولحسن الحظ مر خطاب بريچينيف وتوقيع الاتفاق بسلام .

وكنا كأطباء قدوضعنا شرطين فى موسكو لذهاب بريچينيف إلى هلسنكى : الأول أن تقتصر مقابلات بريچينيف على المقابلات الرسمية .. فقط سواء فى القطار أو أثناء وجوده فى هلسنكى .. والثانى ألا يجتمع مع أحد على انفراد حتى ولو كانت الممرضة " ن " وذلك فيما عدا غروميكو وتشيرننكو .. وقد وافق بريچينيف على هذين الشرطين .

ورغم أن الأمور مرت فى هلسنكى بسلام كما قلت فإن بريچينيف فى إحدى المرات أصر على خرق برنامج الاحتفال والامتناع عن الذهاب إلى غداء رسمى دعا إليه رئيس وزراء فنلندا وطلب من غروميكو وزير الخاجية أن ينوب محله .

ولقد بذلنا جهوداً جبارة حتى أقنعناه بخطر هذا الاقتراح وبأن يذهب إلى الغداء الرسمى كما هو مقرر .. ولقد ذهب بريچينيف بالفعل إنقاذاً للموقف ولكنه وصل متأخراً بعض الشىء وأبقى الوفود جالسة فى انتظاره .. وكان ذلك بسبب حالة من الخمول وعدم الرغبة فى العمل تسللت إليه مجدداً لا أعرف ما إذا كانت نتيجة العودة

لتناول الحبوب المهدئة والمنومة أم لا .

سولوسوف غير المتحمس !

وعاد الرجل إلى موسكو بعد أن اختتم مهمته فى هلسنكى واستقبله الناس بحفاوة .. ولكنه لم يشأ أن يبقى فى العاصمة لأكثر من ٢٤ ساعة وهرع على الفور إلى منزله الريفى فى شبه جزيرة القرم حيث دخل من جديد فى الحلقة المفرغة : تناول الأدوية المهدئة ؛ والضعف العام والاكتئاب وضعف العضلات والإنهاك الكامل .. وهكذا بدا وكأن مجهوداتنا السابقة .. ذهبت دون فائدة مرة أخرى .

ولم يعد ممكناً إخفاء الأمر عن الجميع .. وأبلغت أندروبوف رئيس جهاز المخابرات مرة أخرى إننا لا نستطيع إخفاء الوضع عن المكتب السياسى ؛ وطالبته أن يتجاوز تحفظاته التى كان قد أبلغنى بها منذ شهور بهذا الشأن .

وسافر اندروبوف إلى بريچينيف فى شبه جزيرة القرم وعاد ليقول لى أن بريچينيف موافق على إبلاغ المكتب السياسى بحالته الصحية دون أن يتعهد بمحاولة العودة عن تعاطى الحبوب المهدئة والالتزام برحلة جديدة من العلاج القاسى .

واتفقت مع أندروبوف أن نبلغ سولوف الرجل وثيق الصلة ببريچينيف وفيلسوف الحزب الشيوعى السوفييتى قبل إبلاغ المكتب السياسى كله بحقيقة ما وصلت إليه أحوال بريچينيف .

وكان سوسولوف يعد حينئذ كذلك بمثابة الرجل الثانى فى الحزب وكنا نعتقد أنه الرجل الوحيد الذى يمكن أن يخجل بريچينيف منه وأبلغنا سوسولوف ووضعنا على عاتقه مسؤولية اتخاذ الخطوة القادمة.

ولقد تحدث سوسولوف إلى بريچينيف فى هذا الأمر إلا أنه أدى تلك المهمة بدون أى حماس وكان واضحاً أنه غير راض عن تحمل مسؤولية الموقف .. واتفق سوسولوف مع أندروبوف على الإبقاء على سر مرض بريچينيف فى دائرة محدودة حتى يمكن تجنب نشوب صراع سياسى داخل المكتب السياسى والإخلال بقواعد الزعامة المتعارف عليها ؛ وكذلك لتحاشى زعزعة الاستقرارفى البلاد على حد قولهما .. ولكن سوسولوف كان ساذجاً حين تصور أن البعض لن يستغلوا مرض بريچينيف لأغراضهم الخاصة رغم كل هذا التكتم .

بودغورني يتلصص !

ومرة أخرى استطعنا قبل فوات الأوان أن نعود ببريچينيف إلى المستشفى .. وأعلنا أنه مصاب بالتهاب رئوى لإخفاء النوبة اللعينة من الخمول والضعف العام وفقدان القدرة على التفكير .

وفي التو كان بودغورنى على باب غرفة المستشفى يطلب الدخول .. ولكننى منعته من الدخول باعتبار أن صحة بريچينيف لا تسمح باستقباله . وكان ذلك حقى كطبيب ؛ وكان تعليق سوسلوف على الزيارة غير المتوقعة لبودغورنى حين أخبرته بها أن قال : " كم هو مطلوب أن يتعافى بريچينيف بسرعة وأن ندبر له ظهوراً عاماً في احتفال كبير " .

وحقيقة الأمر أننى عندما أفكر فى تلك المظاهر المدبرة للخروج بالزعيم إلى الناس وهو فى حالة صحية غير مواتية بين حين وآخر وعلى نحو دورى لتأكيد أنه على ما يرام .. عندما أفكر فى ذلك الآن لا أجده مجرد نقيصة الخداع والنفاق ولكن كذلك نزعة "سادية" واضحة من المحيطين بالزعيم المريض وكأنهم يتعمدون تعذيبه وإيلامه.

ولقد قمنا حينئذ بوضع خطة كاملة للتغطية التليفزيونة لعدد من

الاجتماعات واللقاءات يحضرها بريچينيف وهو ما قمنا به بعد ذلك أثناء مرض أندروبوف كذلك بعد توليه السلطة .. وكانت تلك المشاهد يجرى إخراجها بعناية ويتخذ المصورون زوايا محددة .. وينفذون سيناريو جرى الإعداد له مسبقاً .. وكان من بين الاستعدادات الفنية التى قمنا بها " تركيب " درابزينات " أو حواجز خاصة خفية فى مبنى اللجنة المركزية للحزب وذلك بهدف تسهيل دخول وخروج الزعماء المرضى والعجائز من وإلى المنصة بدون أن يلحظها أحد من الحضور أو الجالسين .. كما جرى تجهيز سلالم خاصة للصعود إلى الطائرة أو شرفة ضريح لينين فى الميدان الأحمر حيث تجرى الاحتفالات الشعبية والاستعراضات العسكرية والطريف أن مصممى تلك الابتكارات الفريدة حصلوا على جائزة الدولة حينئذ .

ورغم كل هذه الجهود فقد شاعت أنباء عن طبيعة مرض بريچينيف بين كبار الدولة وتحول المرض إلى قضية سياسية ولم يعرف بودغورنى وأصدقاؤه فقط بالمرض بل ربما أغلبية أعضاء اللجنة المركزية للحزب .

ولقد فوجئت ذات يوم بالجنرال استينوف وزير الدفاع يبادرنى بالقول : " يفجينى .. الوضع صعب جداً .. يجب أن تفعل كل شيء

من أجل أن يعود بريچينيف واقفاً على قدميه لتفكر أنت وأندروبوف فى كيفية إعداد المؤتمر الحزبى العام وتهيئته لحقيقة ما يحدث وأنا من ناحيتى سأحاول التأثير على أندروبوف لهذا الغرض " .

وبعد ذلك طلب منى أندروبوف بالذهاب إلى أوكرانيا واقناع شيربسكى سكرتير عام الحزب الشيوعى فى تلك الجمورية والتى تعد ثانى جمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق بالانتقال إلى جوار بريچينيف فى المكتب السياسى ومساعدته على إدارة دفة الأمور .. إلا أن شيربسكى رفض ذلك قائلاً : " لقد توقعت ما تقوله لى .. ولكننى أعتقد أن بريچينيف إنسان قوى ويمكنه الخروج من هذا المأزق .. كم أنا آسف بحق لما يحدث ولكنني لا أريد الاشتراك فى هذه اللعبة السياسية " .

وعندما عدت من كييف عاصمة أوكرانيا أخبرت أندروبوف بخلاصة حديثى مع شيربسكى ، انكمش أندروبوف فى مقعده وظل يتمتم قائلاً : " ما العمل ؟ بودغورنى يستطيع القفز إلى السلطة " .

وهنا أجبته : " ليس من الضرورى أن يكون البديل هو بودغورنى .. لماذا لا يكون هناك شخص آخر " وصمتُ لبرهة وأضفت : " ليكن أنت مثلاً " .

ورد أندروبوف على الفور قائلاً : " أرجوك لا تقل ذلك مرة أخرى أبداً وإلا اعتقدوا أننى أروج له ؛ هناك شىء واحد يجب أن نفكر فيه هو كيف نبعث بريچينيف إلى الحياة من جديد ؟ " .

وصمت أندروبوف قليلاً وأضاف :

" لتجمع كل المعلومات عن مرضه وعن احتمالات التغيير السياسى من جانب آخر .. ونذهب إليه ونتحدث معه وأعتقد أنه لا يريد أن يترك منصبه ويمكننا أن نلعب على طموحه السياسى كى تحفزه على الاستجابة للعلاج " .

نهاية سينمائية لغرام الزعيم !!

وكان بريچينيف قد بدأت تنتابه الشكوك فى إخلاص ونوايا رفاقه .. ومع ذلك غامر أندروبوف بمقابلته والحديث معه فى هذا الموضوع الشائك .. ولدهشتى فقد نجحت خطة أندروبوف .. وفى زيارتى التالية لبريچينيف وجدته يقول لى دون أى لبس : " المؤتمر الخامس والعشرون للحزب يقترب ويجب أن أتحدث جيداً وأن أستعيد نشاطى .. لنفكر فيما يتعين علينا أن نفعله من أجل ذلك " .

وكان أول شرط أضعه أمام بريچينيف هو إبعاد الممرضة " ن " عنه وأن يذهب قبل انعقاد المؤتمر بأيام إلى بيته الريفى ويحدد له بدقة عدد من يقابلهم يومياً ، وعلاوة علي ذلك مراعاة نظام العلاج بدقة .

عشنا شهرين من التوتر الدائم قبل انعقاد المؤتمر العام للحزب من أجل إخراج بريچينيف من حالته الصحية السيئة وأتذكر الآن وعلى وجهى ابتسامة ساخرة كيف استطعنا أن ندبر إبعاد الممرضة " ن " عن زعيم الاتحاد السوفييتى السابق وهو الإبعاد الذى اتخذ منحى موقفاً درامياً مؤثراً .

وبالتدريج استطعنا أن نباعد بين بريچينيف والممرضة " ن " .

فى البداية قمنا بعمل جدول خاص لتمريضه يشرف عليه ممرضون آخرون . فأعلنت السيدة " ن " أنها لن ترحل إلا بعد أن تودع بريچينيف .. ولما عرف رئيس الحرس الخاص لبريچينيف بمطلب الممرضة قال لى والأسى يكسو وجهه : " يفجينى .. ذهب كل تعبنا سدى لن يستطيع بريچينيف أن يصمد رغم كل ما فعلته لإقناعه وسيرجع كل شىء إلى ما كان عليه " . وأجبته قائلاً : " لا تبتئس .. سوف نرتب الوداع بينهما فى الشارع .. وتحت بصرنا وسمعنا ..

ولن تترك ورجالك بريچينيف لحظة واحدة معها أما أنا فاترك لى الباقى " .

وكان المشهد غريباً للغاية .. كوكبة من الناس تخرج من المنزل الريفى لبريچينيف لمقابلة السيدة " ن " بينما أخذت بريچينيف تحت ذراعى ومن حولنا رجال حرسه وكأننا نخرج به إلى مدينة يسودها الإرهابيون .

وشعرت ببريچينيف يتباطأ عندما بدأت " ن " فى وداعه وهنا لم نعطه الفرصة للحديث أو الإطالة وتمنينا لها أجازة سعيدة .

وصرخ أحد رجال الحراسة بلهفة أن السيارة تنتظرنا ورحلت الممرضة " ن " بعد أن رمقتنا بنظرة ازدراء وكان ذلك نجاحنا الأول .

وبدأ بريچينيف يعتاد السباحة مرتين فى اليوم ويخرج إلى رحلات الصيد ويتمشى فى الحديقة من جديد .

وبعد عشرة أيام أخبرنا أنه قد مل الكسل وأنه يرغب فى دعوة رفاقه للتحضير للمؤتمر وطلبنا ـ نحن الأطباء ـ أن يكتفى بريچينيف بإلقاء خطاب قصير أمام المؤتمر يتكلم فيه عن الخطوط الرئيسية فقط دون الدخول إلى التفاصيل حرصاً عليه من الإجهاد .. ولكنه أجاب : " لم يحدث من قبل عندنا مثل ذلك ؛ وأنا لا أنوى أن أخرج على

تقاليد المؤتمر فى إلقاء الخطب المستفيضة كما أنني لا أريد أن يعتقد أحد أننى مريض وعاجز " .

خطاب لأربع ساعات

وفى ٢ فبراير ١٩٧٦ وأمام خمسة آلاف مندوب للمؤتمر العام للحزب الشيوعى ألقى بريچينيف خطاباً استغرق أربع ساعات .. وفقط كان أقل القليل من الجالسين فى القاعدة يدركون كم يكلف هذا الخطاب الطويل بريچينيف .

مأزق دبلوماسى فى برلين الشرقية

وأتذكر أنه عندما ذهبنا إليه خلال الاستراحة ؛ أى بعد ساعتين من خطابه ؛ وجدناه وقد جلس منهكاً وقد تبلل قميصه من العرق وكأنه قد استحم لتوه بالماء وغيرنا له قميصه بآخر .

ولقد تمكن بريچينيف ـ على الرغم من ذلك من أن ينهى خطابه الطويل بذهن صاف لكنه هذه المرة غيره فى المؤتمر السابق بدأ يتعثر في الكلمات التى تخرج من فمه ويتهته وبدت هيئته كالعجائز

الطاعنين فى السن وهو يجرجر قدميه ذاهباً أو عائداً من المنصة .

وأثناء إلقاء خطابه لم يرفع عينيه عن الأوراق التى أمامه كأى إنسان مصاب بتصلب الشرايين فى المخ .

وفى هذا المؤتمر تعالت أصوات عديدة تنافق عبقرية الزعيم بريچينيف ومنها من يتحدثون عن الديمقراطية والتغيير ومن هولاء إدوارد شيفرنادزه وزير الخارجية فى عهد " البريسترويكا " وأتذكر كلماته التى قالها فى مؤتمر الحزب الخامس والعشرين ومن بينها : "أريد أن أتحدث عن الأمين العام بضع كلمات إنها ليست أبداً كلمات مديح شخصي لشخصه ولكنها كلمات عملية حزبية سأحاول أن أرسم بسرعة صفاته العامة لأبين خصائصه السياسية الفكرية والإنسانية سأحاول أن أرسم " بورتريه " لزعيم شعبنا وحزبنا . هذه الشخصية السياسية البارزة فى عالمنا المعاصر والتى يجب أن نربى أنفسنا ونربى الآخرين على السير على طريقها واتباعه ؛ لقد تعلمنا منه كيف نعمل علي أسس اللينينية ونفكر بأسلوب لينين ونعيش باللينينية وقالوا قديماً أنه كلما كانت السماء صافية كلما استطاع من لديه جناحان قويان الطيران إلى أعلى وها هو ليونيد بريچينيف ورفاقه الأماجد يصنعون فوقنا سماء صافية بدون غيوم ويهيئون لنا الظروف كي نطمح فى الحياة والطيران إلى عنان السماء الصافية

وهكذا صنع شيفرنادزه وأقرانه ظاهرة " بريچينيف " بنفاقهم الذى جعل الرجل يظن أنه معصوم من الخطأ ولقد استطاع بريچينيف بمساعدة أندروبوف وتشيرننكو وآخرين أن يوجه ضربة قوية لبودغورنى وبولانسكى أصدقائه القدامى . وارتفعت أصوات عديدة تعارض تجديد انتخابهم وكان معنى ذلك أن أيام بودغورنى أصبحت معدودة فى قمة السلطة وبالفعل أطيح به تماماً بعد أقل من عام .

وفى مساء اليوم الذى ألقى فيه بريچينيف خطابه بالمؤتمر العام وحوالى الساعة الحادية عشرة تقريباً اتصل بى بريچينيف وبدلاً من أن أسمع منه كلمة شكر فوجئت به يسب الأطباء الذين اتهمهم بأنهم لم يفعلوا شيئاًمن أجل صحته ؛ وأضاف أنه من الأفضل لنا أن نذهب إلى سيبيريا لعلاج الكادحين بدلاً من علاج القادة .

وأنهى حديثه الغاضب والغريب بأن أمر بحضور أطباء الأسنان الألمان الذين أعدوا له بعض الأسنان الصناعية فى الصباح الباكر إلى موسكو وأن نتركه بمفرده تلك الليلة ينعم بالهدوء والنوم والراحة - على حد قوله .

وعندما وضعت سماعة التليفون كنت أدرك أن تلك المكالمة لم

تكن إلا مجرد رد فعل إنسان مريض وأن المستقبل سيحمل لنا نوبات مرض أخرى تتطلبنا إلى جواره ، ومع ذلك فقد تحدثت إلى أندروبوف على الفور وقلت إننى أرغب فى الاستقالة إلا أنه أقنعنى بالبقاء نظراً لصعوبة الوضع الناجم عن مرض بريچينيف .

وبحلول عام ١٩٧٨ كان بريچينيف قد ترك لأعوانه من الأصدقاء المنافقين أو المخلصين الذين سيطروا على المكتب السياسى دفة تسيير الأمور وبعد أنه اطمأن أنه لا يوجد بديل قوى ، داخل الزعامة السوفييتية يمكنه أن يطيح به

وأخذ بريچينيف يمعن فى عصيان نصائحنا الطبية وأصبح يعيش حياة غريبة .. ينام كل يوم ما بين ١٠ و ١٢ ساعة ويكتفى بعقد اجتماع لمدة أقل من ساعتين كل أسبوع فقط للمكتب السياسى وأخذت تستهويه مشاهدة مباريات الهوكى بينما لم أجد يوماً كتاباً أو مجلة بين يديه ، وعاد من جديد لتعاطى الحبوب المهدئة والمنومة التى لم يدخر أصدقاؤه جهداً فى توفيرها له .

وتدهورت صحة بريچينيف إلى حد أن أندروبوف لم يعد يخشى أن يوقع باسمه على التقارير الصحية التى كنا نرسلها إلى المكتب السياسى للحزب بشأن أحوال بريچينيف . وواقع الأمر أن تلك

التقارير لم تحرك أحداً فى اللجنة المركزية .

وفى أكتوبر ١٩٧٩ وضع بريچينيف البلاد فى مأزق دبلوماسى وكادت أن تنفجر فضيحة على الملأ .. كان مقرراً أن يلقى بريچينيف كلمة فى احتفال ببرلين الشرقية بمناسبة الذكرى الثلاثين لتأسيس جمهورية ألمانيا الشرقية .. وقبل الاحتفال بيوم واحد تناول بريچينيف قرصاً متوماً قوياً ؛ وعند الصباح لم يكن ممكناً أن يقف على قدميه . وحتى ساعة قبيل موعد إلقاء خطابه فشلت كل الجهود لإيقاظه واستنهاض وعيه والخروج به إلى الحديقة لتحريك ساقيه

حاولنا المستحيل معه وفشلنا ؛ وظل غروميكو وزير الخارجية وأعضاء الوفد السوفييتى ينتظرون أمام مقر إقامته فى السيارات بالشارع .. واقترحت عليهم أخيراً أن يذهبوا بمفردهم إلى مقر الاحتفال وإذا لم يتمكن بريچينيف من الحضور خلال نصف ساعة أن يتصرفوا كما يشاءون .

وأخيراً استطعت بمساعدة رجال حراسته أن نخرج به إلى الشارع مستنداً إلى أذرعتنا ونقلناه بالسيارة إلى مكان الاجتماع وكان قد بدأ فى استعادة وعيه . وتقدم نحو المنصة لإلقاء كلمته بصعوبة إلى حد أن الرئيس البولندى جيريك وأعضاء وفده من ضيوف الألمان

نهضوا وأخذوا فى مساعدته حتى وصل إلى المنصة عندما لاحظوا ضعفه البالغ .

وبدلاً من أن يشكر بريچينيف الرفاق البولنديين وجه إليهم من خلال السفير احتجاجاً رسمياً لما أبدوه تجاهه أثناء الاجتماع .

النهاية فى البيت الريفى

وبعد عطلة احتفالات عيد الثورة السوفييتية فى أكتوبر عام ١٩٨٢ والتى حضر خلالها بريچينيف العرض العسكرى فى " الميدان الأحمر " كما هو معتاد عدت إلى مكتبى بالإدارة الرابعة التابعة لوزارة الصحة وإذا بأحد حراس بريچينيف يتصل بى تليفونياً ويطلب منى على وجه السرعة قائلاً : " إن بريچينيف يحتاج إلى مساعدة طبية عاجلة " .

وذهبت بسيارتى مسرعاً إلى منزل بريچينيف الريفى فى ١٢ دقيقة فقط . ودخلت عليه فى غرفة نومه وأدركت فوراً لما رأيته أنه غادر الحياة منذ بضعة ساعات وفكرت ماذا يتعين على أن أفعل ؟ وكنت أعلم أن التليفونات عرضة للمراقبة وكان يتعين على أن أبلغ أندروبوف فوراً فهو الرجل الأول فى المخابرات والثانى فى الحزب .

وكان أندروبوف لم يصل إلى مكتبه بعد فاتصلت بسكرتيره الخاص وطلبت منه أن يتصل أندروبوف فور وصوله وعلى وجه السرعة بمنزل بريچينيف الريفى .

وبعد عدة دقائق جاءنى صوت أندروبوف وطلبت منه أن يحضر على وجه السرعة ؛ دون أن أبلغه بالنبأ

وحين دخل أندروبوف المنزل بدا مهموماً وقال لى : " لقد توقعت أن بريچينيف قد مات " وكان الرجل حزيناً وطلب فجأة دعوة تشيرننكو إلى المنزل .. ولكن زوجة بريچينيف " فيكتوريا " قالت أن دعوة تشيرننكو لن تعيد بريچينيف إلى الحياة ورفضت استقباله فى المنزل ، كانت فيكتوريا تعتقد أن تشيرننكو أحد المتسببين فى وفاة بريچينيف لأنه كان من بين من يمدونه بالحبوب المهدئة ؛ واستجاب أندروبوف لرغبة الزوجة .

وأمام سرير بريچينيف أخذ " أندروبوف " يتأمل وجه الغائب الذى اكتسى بالشحوب التام وأصبح مائلاً إلى الزرقة وتمكن منه قناع الموت . وانتابت رعشة وشحوب أندروبوف فى تلك اللحظات .. وكان من الصعب أن أخمن فيم كان يفكر أندروبوف فى تلك اللحظة .. هل كان يتأمل حقيقة أن الموت هو مصير الجميع بصرف النظر عن

مناصبنا وما نحرزه من سلطة ؛ أم كان يفكر فى أن هذه هى اللحظة التى طالما حلم بها ، اللحظة التي يصبح فيها علي رأس الحزب والدولة العظمى .

وهكذا كانت بداية عصر جديد ؛ ولكن مرة أخري تدخلت الحالة الصحية للزعيم الجديد فى تقرير مستقبل البلاد .

الفصل السابع

الصـــراع بعـــد بريجينيـــف

* الرئيس المريض يتوسل لأطبائه : حافظوا على صحتى
* أعداء أندروبوف فى المكتب السياسى يجمعون معلومات عن أسرته
* أندروبوف فى السلطة بعد ١٦ عاماً من اقتراح تقاعده
* غورباتشوف ليس تلميذاً للرئيس
والبريسترويكا ليست من أندروبوف
* شمة هواء عجلت بموت أندروبوف
وسمكة " رنجة " تودى بصحة " تشيرننكو "
* مطامح " غروميكو " و " أوستينوف " جاءت بالرئيس " تشيرننكو "

بعد إذاعة نبأ وفاة بريچينيف فى ١ نوفمبر بيومين عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى اجتماعاً تم فيه انتخاب أندروبوف سكرتيراً عاماً للحزب .. وبعد انتهاء الاجتماع ذهبت مساء إلى منزل أندروبوف الريفى ومعى طبيبه المعالج أرخيبوف .. كانت غرفة نومه متواضعة للغاية ، ضيقة المساحة فلم تكن تتسع سوى لسرير ومقعدين .. جلس أندروبوف على حافة السرير بينما جلسنا نحن الإثنين علي المقعدين .. كان أندروبوف يبدو متعباً للغاية ولكنه كان رقيقاً فتكلم معنا بحرية ولم يخف سعادته لوصوله إلى قمة السلطة .

اقتراح بتقاعد أندروبوف !!

تذكرت ، وأنا أمامه ، شريط الأحداث واللقاءات التى ربطت بيننا

منذ عام ١٩٦٦ ـ حينما طلبوا منى مع بعض الأطباء الكشف عليه وتحديد مرضه .. كان ذلك قبل تعيينى كبيراً لأطباء الكرملين .

كان الأطباء فى الإدارة الرابعة لوزارة الصحة قد قرروا أن أندروبوف يعانى من ارتفاع ضغط دم شديد ، وأدت مضاعفاته إلى احتشاء بعضلة القلب كما طرحوا آنذاك مسألة تقاعده عن العمل .

وكنت مع زملائى علي علم بأنه قد عاني لفترة طويلة من مرض الكلى فشككنا في الأمر وإنه ربما يكون ارتفاع ضغط الدم مرتبط بزيادة إنتاج هرمون " ألدسترون " وكانت تلك الحالة حينئذ غير معروفة علي نطاق واسع للأطباء السوفييت ، وبالصدفة كان إجراء التحاليل الكاشفة لهذا الهرمون ممكناً فقط فى المعهد الذى أديره .

وجاءت نتيجة التحاليل مؤكدة لظنوننا فقررنا أن نصف له دواء "الداكتون " الخاص بهذه الحالة .. وبالفعل أدى هذا العلاج إلى نقص الهرمون وخفض ضغط الدم بل ورجوع رسم القلب الكهربائى إلى حالته العادية .

كان أندروبوف إذن لا يعانى من احتشاء بالقلب ، ولكن كانت التغيرات فى رسم القلب قبل العلاج نتيجة لتغير محتوى عضلات القلب من البوتاسيوم . وتحسنت صحة أندروبوف حينئذ ولم يعد

مطروحاً إحالته إلى التقاعد وعاد من جديد إلى العمل.

تذكرت كل هذا وأنا معه في المساء الأول لفترة حكمه القصيرة .. وتذكرت أيضاً السنوات الأخيرة لحكم بريچينيف حينما بدأ الصراع على السلطة وحاول خصومه إلقاء الشكوك حول قدرته على العمل بسبب مرضه .

وتذكرت أيضاً حينما اتصل بي بريچينيف تليفونياً قبل وفاته بأيام قلائل قائلاً : " يغفيني .. لماذا لم تحدثني بشأن صحة أندروبوف ؟ لقد قالوا لى أنه مريض للغاية وأن أيامه معدودة .. أنت تعلم جيداً أننى أعتمد عليه .. يجب أن تفعل كل شيء من أجله ، إن استمراره في العمل ضرورى جداً " ..

أجبت بريچينيف آنذاك بأننى أحطته علماً قبل ذلك بمرض أندروبوف كما أخبرت المكتب السياسى بأن مرضه خطير ولكننا استطعنا خلال خمسة عشر عاماً بفضل العلاج الطبى إيقاف تدهور صحته ، كما أن أندروبوف يعمل بنشاط وهمة يحسده عليه الكثيرون من الأصحاء فى المكتب السياسى .

فرد على بريچينيف : " نعم أنا أعرف كل ذلك ولاحظت تصرفاته أثناء حضوره لزيارتى فهو لا يشرب الخمور . كما أنه لا يأكل أى

شيء تقريباً . ودائماً يعلن أنه يتناول الطعام بدون ملح . أوافقك أنه يعمل كثيراً جداً وبكفاءة ولكن يجب عليك أن تفعل ما بوسعك للحفاظ على صحته وقدرته على العمل " .

وأضاف : " افهمني يا يغفيني إن الأحاديث والشائعات تدور الآن حول مرضه ولا يمكننا أن نسكت على ذلك .

خطط الرئيس الجديدة !!

بدد صوت أندروبوف استغراقي في استعراض ذاكرتي لحكاية مرضه الطويلة ، وهو يحدثنا عن نواياه وخططه في الفترة القادمة التي تتضمن في أولوياتها محاربة الفساد والجريمة وعن نيته لتعيين نائبه تشيربيكوف رئيساً للمخابرات "ك . ج . ب" وعن ضرورة تجديد القيادات في الحزب والحكومة وأنهى حديثه قائلاً : " أمامنا كثير من العمل ، وعلينا جميعاً العمل بجد أما أنا فعليَّ بشكل خاص أن أعمل كثيراً .. إنني ممتن كثيراً لكما علي ما أسديتموه لي من صنيع خلال الخمسة عشر عاماً الماضية .. لو لم تفعلا ذلك لكنت في عداد الأموات أو العجزة " .

ثم أضاف : " أعلم جيداً جسامة المسؤولية التي ألقيها علي

عاتقكما ولكن يجب أن تفعلا المستحيل من أجل الحفاظ على قدرتى على العمل . أعلم أنكما سمعتما ذلك أكثر من مرة منى تلك الجملة ولكنها فى السابق ارتبطت بصحة السكرتير العام السابق للحزب ، أما الآن فالسكرتير الجديد أيضاً مريض . هذا قدركما الذى لا أحسدكما عليه " .

أجبناه بكلمات دافئة صادقة موكدين على أنه سيفعل الكثير للبلاد وللشعب ولكنني من داخلي شعرت بالأسف لعلمى ما ينتظرنا فى المستقبل .

كانت الكليتين تقريباً متوقفتين عن العمل وكان أندروبوف يذهب إلى المستشفى لينام كل ليلة أو ليلتين حيث كنا نجري له الفحوص ونقوم علي علاجه باستمرار . وخلال فترة علاجنا له اقترينا منه كثيراً وعرفناه بشكل أوثق .

هناك من يقول اليوم أن أندروبوف لو عاش فترة أطول لفعل ما فعل غورباتشوف من أجل تغيير النظام الاجتماعى ونظام الدولة .

كل ذلك هراء ، ففى عهد أندروبوف لم يكن هناك تغييرات فى بنيان الدولة أو البناء الاجتماعي المعتمد على المبادىء الاشتراكية .. كان دائماً يتحدث عن الحالة الاقتصادية وعن ضرورة أن تعتمد

السياسة على الاقتصاد .

وأنه عندما يصبح الشعب شبعاناً ومرتدياً ملابس لائقة نستطيع ألا نخاف على نظامنا السياسى والاجتماعى .

كان أندروبوف مدركاً خطورة مسألة القوميات بل وكان يطرحها دائماً فى اجتماعات المكتب السياسى فى وجود بريچينيف وكانت ميزته الكبرى أنه يعرف مزاج الناس وما يدور فى عقولهم بصفته رئيساً سابقاً لجهاز المخابرات وقد اتخذ بالفعل خطوات محددة من أجل إشاعة الديمقراطية فى أجواء السلطة التنفيذية والتشريعية ولكنه لم يطرح أبداً فكرة التخلص من مركزية النظام .

وعندما كان الحديث يدور حول مثل ومبادىء اشتراكية وقواعد نظام الدولة ، كان أندروبوف يتحدث بحسم وحزم واضحين في الدفاع عنهم .. ولم يدخر أندروبوف وسعا فى الصراع ضد المنشقين .

وكم من مرة اصطدمت به بخصوص هذا الموضوع ، كان يصلنى خطابات ونداءات كثيرة من الخارج من أصدقائى وزملائى لمساعدة بعض المعارضين الممنوعين من السفر وكنت موضوعاً تحت المراقبة الدقيقة لدرجة حيرتنى أحياناً فى التخمين عمن يراقبنى يومياً .

ووصل الأمر بى أن أصبحت أشك فى وجود ميكروفونات فى

شقتى .. وطلبت من أندروبوف أن يبعث برجاله الفنيين كى يتحققوا من ذلك ، وكان أندروبوف علي علم باتصالاتي وبالنداءات وبالتوسلات التى أتلقاها .

فى إحدى المرات اتصل بى تليفونياً البروفيسور " جودفين " من انجلترا طالباً مساعدة أحد الأكاديميين الروس فى علاج زوجته خارج البلاد . كان هذا الأكاديمى قد رفض طلبه بمغادرة البلاد إلى إسرائيل

وبالفعل قمت بالمشاورات اللازمة .. وفى لقائى التالى بأندروبوف فوجئت به يقول لى : " أنت ليبرالى كبير وهذا ليس دائماً شيء حسن .. كان صواباً أن تساعد الرجل فى علاج زوجته ولكن يجب أن تكون حذراً فى إسداء عطفك " . ساعتها لم أدرك كنه تحذيره لى .. هل كان ذلك اهتماماً منه بسلامتى أم طلباً بالابتعاد عن معارفى الأجانب .

جورباتشوف مختلف

. ليس صحيحاً ما يقال عن أن غورباتشوف كان تلميذاً لأندروبوف الحازم . يكفى أن أتذكر ما كان يقوله دائماً أندروبوف الحازم : "

لابد أن تفهم أن تحطيم أى نظام مهما كانت عظمته يصبح سهلاً فى وجود أسباب ودوافع للسخط لدي الناس . وخاصة عندما يلعب التعصب القومى دوره . المنشقون ليسوا سوى أعداء لنظامنا يتخفون وراء الدياغوجية والشعارات الطنانة .

" وهؤلاء سلاح قوى يمكن أن يحطم بلادنا ويجب علينا الدفاع عن بلادنا بحزم " ، وكم من مرة قال جملته المأثورة : " الثورة التى لا تستطيع الدفاع عن نفسها غير جديرة بالحياة " ، وبالفعل كان يحارب حركة المنشقين بكامل وعيه واقتناعه .

قد يبدو أندروبوف رئيساً غامضاً حكم لفترة قصيرة ولكنه من خلال تجربتى كان مدققاً وفطناً وماكراً ، أحياناً كانت أفعاله تذكرني بالسياسى الإيطالى ميكيافيللى ولكنه كان شريفاً وطاهر اليد .

لم تدم فترة رئاسته أكثر من عام ونصف ولذا لم تتضح لكثيرين معالم سياسته الخارجية .

ومن أحاديثى معه شعرت ببحثه الدائم عن وسيلة للخروج من الحرب الأفغانية واهتمامه بتقليص الصواريخ المتوسطة المدى فى أوروبا .. ولكنه كان يتحدث دائماً عن السلام من موقع القوة .

وكان اهتمامه بالإصلاحات الاقتصادية طاغياً وقد أعطى ذلك

الاهتمام نتائجه فى عام ١٩٨٣ إبان حكمه .. يكفى أن نعرف أن حجم الإنتاج الصناعى قد زاد حوالي ٤ بالمائة مقابل ٩ر٢ بالمائة فى العام السابق وازدادت إنتاجية العمل بحوالى ٥ر٣ بالمائة إننا نعيش اليوم ونتحسر على تلك المؤشرات .

وازدادات شعبية أندروبوف فى البلاد ولكن خصومه داخل المكتب السياسى "تشيرننكو ، وكريلينكو وغيرهم" حاولوا الإقلال من شأن إصلاحاته مستخدمين كافة الوسائل بما فيها الشائعات التى تمس عائلة الرجل .

ذات مرة ازدادت الشائعات فى موسكو حول أن أندروبوف سيبعدنى قريباً عن منصبى . وأن أيامى أصبحت معدودة فى الكرملين . وبدأ رنين الهاتف فى منزلى يصمت ويقل عدد أصدقائى

الماضى يطارده !

وفى أحد زياراتى لأندروبوف فوجئت به يقول : " إن حسابات هؤلاء الناس يا يغفينى ساذجة .. فهم لا يعرفون علاقتنا الوطيدة ويعتقدون بحديثهم وإشاعتهم أن يجعلوك متحفظاً فى علاقتك معى بل وأن تبدأ فى الغضب منى .

إنهم يحاولون الحصول على ما يهينني ويفتشون فى الماضى .. لقد اكتشف رجالي أن أحدهم قد سافر إلى القوقاز الشمالى حيث ولدت وعاش والدى وجمع معلومات عنه ، عن أمى وعن الفترة التى قضيتها يتيماً وكيف أخذنى أحد التجار اليهود الأغنياء إلى منزله ليربينى وها هم يريدون أن يلعبوا على هذا الوتر أمام الناس ، ويريدون القول بأنى أخفى أصلى وفصلى . لا شك أن الصراع يشتد وعليك أن تهدأ بشأن الشائعات " .

وبالفعل هدأت الشائعات من حولى وعاد جرس تليفونى للرنين وانهالت على برقيات التهنئة بمناسبة الأعياد .

كانت أهم خطوات أندروبوف فى إدارة الصراع السياسى على السلطة هو إبراز قيادات جديدة وتصعيدها فى سلم الحزب والحكومة فاختار غورباتشوف ليحتل المركز الثانى فى هرم القيادة ثم دفع "ريچكوف" إلى المقدمة واستدعى " ليجاتشوف " من سيبيريا ليرأس قسم الكوادر باللجنة المركزية .

صحيح أن أندروبوف أخطأ فى بعض اختياراته ولكن عذره أنه كان فترة طويلة بعيداً عن الحزب والعمل الحزبى إبان فترة اشتغاله بالمخابرات الروسية (ك . چ . ب) ولذلك لم يكن يعرف القيادات .

وفى إحدى المرات أشرت إلى بعض القيادات التى تم تصعيدها بقرارات غير مفهومة فرد علي قائلاً : فى أى مجتمع توجد نواقص والنقيصة الكبرى للمجتمع الاشتراكى هو غياب نظام أو غياب معايير موضوعية لاختيار وتصعيد القيادات .

أما فى الرأسمالية فيتم اختيار وتصعيد القيادات بشكل طبيعى على أساس الصراع والتنافس والبقاء للأصلح مع استثناء نسبة غير كبيرة لمن يرثون رأسمال كبير .. للأسف عندنا إغراق فى الذاتية وعندما نضع تقييماً للناس نختار من يرفع الشعارات وينساق للديماغوغية السياسية " .

واحتدم الصراع بين أندروبوف وتشيرننكو وألقى هذا الصراع بظلال على صحة كل منهما ففى عام ١٩٨٣ حدث ما كنا نخشاه منذ زمن طويل .. لقد توقفت كليتا أندروبوف تماماً عن العمل وتراكمت فى جسده المواد السامة . وكانت زيادة نسبة البوتاسيوم فى الدم خطراً داهماً على حياته . وقررت مع الكونصلتو البدء فى استخدام جهاز الكلية الصناعية لتنقية دمائه .

وفى المستشفى تم تخصيص جناح له ، تم فيه وضع جهاز كلية صناعية وغرفة لإقامته وغرف لحراسته ولأطبائه المعالجين .. كان

أندروبوف يذهب إلى المستشفى مرتين فى الأسبوع لعمل غسيل الكلى ، وكان ذلك كافياً فى البداية للتخلص من كافة النفايات السامة المتراكمة فى دمه ، لم نفقد أملنا كأطباء فى إمكانية مداومة أندروبوف لعمله فكم من مرضى عاشوا بفضل استخدام الكلية الصناعية لأعوام طويلة واستمروا فى أداء أعمالهم .. كنا نعرف أن مستشار النمسا " كرايسكى " استمر فى السلطة وهو يعانى من نفس ما عاناه أندروبوف .. وكان هذا المثال دافعاً قوياً لأندروبوف ليستمر فى تحمل الأعباء الثقيلة للسلطة .

لقد فعلنا كل شيء استخدمنا إنجازات الطب فى هذا المجال .. واستدعينا البروفيسور الأميركى روبين الشهير فى علاج الفشل الكلوى .

ولهذا الاستدعاء قصة طريفة ، كانت شلة " تشيرننكو " تعتبر أن السلطة من حقها . وعندما تدهورت صحة أندروبوف بدأت تلك المجموعة فى متابعة الموقف عن كثب .

استشارة سرية

وفى نفس الوقت بدأت أجهزة مخابرات الدول الغربية تهتم بصحة

الأمين العام لمعرفة مدى استقرار زعامة البلاد .. وكانت خطوات أندروبوف أثناء المشى بدأت فى الاضطراب بعد استخدام الكلية الصناعية مما أثار انتباه تلك الأجهزة التى بدأت تحاول تجميع المعلومات من خلال الصور المنشورة والأفلام الإخبارية ومقابلة الأفراد الأجانب الذين استقبلهم أندروبوف لمعرفة حالته الصحية من خلال سؤالهم .

وبدأ أندروبوف يبدى اهتماماً بدراسة إمكانية أن يفحصه أحد الخبراء الأجانب بشرط أن يتم ذلك في سرية تامة .

ولذلك قمنا بدراسة إمكانية القيام بهذه العملية معتمدين على الخبرات السابقة فى المعالجة السرية " لماوتسى تونج " و " تشواين لاى " زعيمى الصين واتخذنا كافة الإجراءات الضرورية لمنع تسرب أى معلومات ضئيلة إلى الخارج .

وفى أحد الأيام قال لى أندروبوف بدهاء دبلوماسى " هل يمكننا دعوة أحد الاختصاصيين الأجانب فى أمراض الكلى لفحصى ؟ إننى أثق تماماً فى الأطباء السوفييت ولكننى أعتقد أن وجود رأيين أحسن من وجود رأى واحد أليس كذلك .. ؟ "

واستدعينا بروفيسور " روبين " مدير مركز الكلى فى مستشفى

نيويورك .. تمت الدعوة عن طريق صديقه البروفيسور " لوباتكين " الروسى وجاء " روبين " فى صيف ١٩٨٣ مصطحباً زوجته التى تعمل فى نفس المجال .. ولاشك أن البروفيسور الأميركى كان يعرف أن دعوته إلى موسكو لم تكن بريئة بغرض السياحة فقط ولكنه لم يخطر على باله قط أنه سيعالج الأمين العام للحزب الشيوعى السوفييتى والرجل الأول في موسكو .

كان هاجس أندروبوف ورجال الـ ك . ج . ب . هو إمكانية زرع الكلى وقد أخبرناهم كأطباء سوفييت أن مرض النقرس قد دمر تماماً كليتى أندروبوف وأن زرع الكلية له مستحيل بل وبدون فائدة ، خصوصاً فى هذا السن وعندما تصاب شرايين الكلية بتصلب الشرايين .

ولكنهم أصروا على استدعاء البروفيسور روبين وألحوا أن تتم استشارته فى غياب الأطباء السوفييت حتى لا يؤثروا على رأيه وحتى لا يشعر بحرج منهم قد يؤثر على وصفه للعلاج اللازم .

والحقيقة كان " روبين " على مستوى المسؤولية التى أنيطت به فأيد بالكامل صحة خطط العلاج التى وضعها الإخصائيون السوفييت واستبعد إمكانية زرع الكلى .. وقد أدت تلك الاستشارة

إلى انقشاع غبار التوتر بينى وبين رجال المخابرات لزمن فقد كانوا قبلها يتساءلون بريبة عن صحة علاج الزعيم .. وها هى الاستشارة مع " روبين " قد تمت فى وجودهم وبدون وجود الأطباء السوفييت .

رفض البروفيسور " روبين " أى أجر مقابل فحصه لأندروبوف ، ولكن الأخير أصر على إهدائه لوحة للفنان السوفييتى الشهير "تشيلوف" وهنا يجب أن أشيد بنزاهة " روبين " وكرامته المهنية التى أبت عليه أن يذكر للدوائر الأميركية شيئاً عن زيارته لموسكو وزياراته بعد ذلك ومشاركته فى علاج أندروبوف .. لقد احتفظ الرجل بأسرار مريضه ولم يستجب لإغراء الإعلان عن نفسه وعن اشتراكه فى علاج الرجل الأول فى الاتحاد السوفييتى .

والحقيقة كان أندروبوف غير بعض الزعماء السوفييت ، يعطى للأطباء والطب حق قدرهم .. فهم قد حافظوا على حياته طوال خمسة عشر عاماً .. وظهر ذلك جلياً فى رد فعله على بعض مساعديه الذين حاولوا إستدعاء بعض الدجالين .ومن يتمتعون بقدرات غير محسوسة للعلاج .. لقد رفض أندروبوف ذلك ووجه لهم اللوم على ذلك .

وفى آخر أيام أندروبوف جعله المرض أكثر حزماً وصرامة .. وقد

أحس الشعب والبلاد والحزب بكل ذلك فقد ازدادت الحرب ضد الفساد بوتيرة شديدة وقام أندروبوف بإقالة سكرتير الحزب فى أوزبكستان " رشيدوف " ومجموعته وتم نشر التحقيقات معهم على صفحات الجرائد .

استدعاء بالقوة !!

ومرة أخرى يتدخل القدر من جديد ليدير دفة الحكم فى البلاد ، كان أندروبوف منهكاً من العمل من ناحية وجلسات الغسيل الدموى وفى سبتمبر ١٩٨٣ قرر أن يأخذ أجازة ويذهب إلى جزيرة القرم ، حيث أعددنا له استراحة تتسع لجهاز الكلية الصناعية وللأطباء المصاحبين له .. وفى نفس الوقت انتهزت الفرصة للسفر إلى ألمانيا لتلقى الدكتوراه الفخرية من أقدم جامعاتها " يين " ولكن حدثت مفاجأة أثناء الاحتفال بتسليمى الدكتوراه .

ظهر فجأة ضابط ألماني واقترب منى ليخبرنى بضرورة الاتصال بموسكو من خلال جهاز اتصال خاص فى ضاحية بعيدة بالمدينة .. ذهبت مع الرجل ، حيث استمعت إلى صوت رئيس المخابرات كريوشكو يطلب منى على وجه الاستعجـــــــال الطيران إلى مدينة

" سيمفروبول " على ساحل البحر الأسود قائلاً أن أحد الطائرات المروحية ستنقلني إلى برلين على الفور ومن هناك ستنتظرنا طائرة خاصة لتقلنى .. حاولت أن أستفسر عن أى تفاصيل لكنه قال لى : "لا أستطيع البوح بشىء إن الأطباء طمأنونى عن الحالة فى الوقت الحاضر ولكنهم يرجونك الحضور بأقصى سرعة " .

بسرعة ذهبت إلى الجامعة وأبديت للمجتمعين فى صالة الاحتفالات أسفى على عجالة عن اضطرارى لعدم المشاركة فى احتفالهم والمغادرة على الفور وتركتهم مغادراً المكان وهم فى وسط دهشة ووجوم .. ولكن قد يغفر لى أنه كان بصحبتى ضابط ألمانى بملابسه العسكرية .

وفى أثناء رحلتى تزاحمت الأفكار في عقلى وبدأت مناقشة كافة الاحتمالات التى تطلبت عودتى بسرعة ولم أستطع أن أصل إلى نتيجة محددة .. فقبل سفرى تحسنت صحة أندروبوف بفضل تغيير الجو والراحة التى ينعم بها فى شبه جزيرة القرم وأصبح أكثر إجتماعية ، يتحدث بطلاقة ويبتسم أحياناً .. كان ذلك حلماً طالما تمنيناه .

وهناك فى القرم كانت بانتظارى مفاجأة غير سارة لعب فيها القدر

وسوء الطالع دوراً كبيراً .

كان فى انتظارى فى القرم مصادفة سيئة قد حدثت بسبب عدم حرص أندروبوف والمحيطين به .

فقبل سفرى من القرم كنت قد حذرت أندروبوف ومن معه بأن يلتزموا بصرامة بنظام العلاج .. وأن يحذروا التعرض للبرد أو الإصابة بالزكام لأن جسم أندروبوف قد أصبح تقريباً بدون أى مقاومة أو قدرة دفاعية أمام العدوى .

وللأسف نسى أندروبوف تحذيراتنا وعندما أحس بتحسن صحته رغب فى تغيير الجو والتخلص من جو المستشفى المخيم على الاستراحة فقرر أن يتمشى فى الغابة ولم يقاوم رغبته المحيطون به بدرجة كافية فذهب وهو يرتدى ملابس خفيفة للتجول فى أحراش الغابة .

ولعب الطقس هنا دوراً كبيراً ، فمن خصائص الطقس فى شبه جزيرة القرم أنه عندما تسطع الشمس يحس الإنسان بالدفء ولكنه عندما يقف فى ظل مبنى أو شجرة يحس بالبرد على الفور رغم الطقس المشمس .. وعندما تعب أندروبوف من المشى قرر الجلوس على مقعد رخامى فى ظل بعض الأشجار وهنا بدأ بالشعور بالرعشة

تنتابه وأحس يتجمد أطرافه وطلب من معاونيه إعطائه سترة ثقيلة كى يضعها على كتفيه .

وفى اليوم التالى ظهر عنده دمل كبير متشعب .. وعندما فحصت أندروبوف ومعى أشهر جراحينا كان الدمل قد ازاد حجماً وتشعباً مما استلزم إجراء جراحة عاجلة له وعدنا إلى موسكو بسرعة لأننا كنا نعلم إمكان حدوث حالة تسمم دموى فى الجسم أثناء الجراحة أو بعدها وقمنا باستئصال أجزاء العضلات التى أصابها الغرغرينا ومرت العملية بنجاح ولكن كانت قوى جسم المريض منهكة للغاية فلم يلتئم الجرح بعد العملية .

ورغم الإحباط الذى انتابه ، واصل أندروبوف العمل فى الأسابيع القليلة التالية للعملية فكان يستقبل معاونيه ويرأس اجتماعات صغيرة ويقرأ التقارير المرسلة إليه ويتخذ قراره بشأنها .

استعنا بأحسن ما أنتجه الطب والعلم السوفييتى فى علاج أندروبوف ولكن حالته كانت تتردى باضطراد وازداد ضعفه . وازادت صعوبة مقاومة التسمم الذى يعانيه وبدأ أندروبوف يعى أنه لن يخرج من هـــذه الحالة سليماً ، ذات مرة نظر فى عينى مباشرة ثم قال : لقد أصبحت عاجزاً بالكامل ويجب أن نفكر فى من يشغل

منصب الأمين العـــام للحزب .. وعندما لاحظ اضطرابى وصمتى أردف قائلاً : أنت تحبنى وتعطف على ولذلك لن تقول الحقيقة لى .

بدأت الخواطر تلح على عقل أندروبوف بترك منصبه وفى أحد الأيام كنت شاهداً على محادثة تليفونية بينه وبين ريجكوف أصغر سكرتير فى اللجنة المركزية .. والذى أصبح بعد ذلك رئيساً للوزراء فى عهد غورباتشوف .. قال لريجكوف : " نيقولاى ، لو خرجت إلى التقاعد ما هى الضمانات المادية التى سأتمتع بها ؟ " وبهت ريجكـــوف ولم يعرف بأى شىء يجيب وأنهى أندروبوف الحديث بقوله : " فكر جيداً فيما قلته لك " ، ولكنه بعد ذلك لم يفتح الموضوع أمامى .

فى تلك الأثناء حدث ما أزعجنى مع من شارك فى علاج أندروبوف .. لقد اتصل بى تشيريكوف رئيس المخابرات وطلب منى الحضور إليه وذهبت إليه ووجدته مضطرباً ومتهيباً فهو يعرف علاقتى الوطيدة بأندروبوف ولكنه جمع أطراف شجاعته ثم قال : يغفينى لقد تلقيت خطاباً رسمياً من موظفى المخابرات يشيرون فيه إلى عدم كفاءة علاج أندروبوف ويطلبون منى التدخل لضمان علاج جيد له .. أرجوك أن تفهمنى فأنا أعرف ما تبذلونه جميعاً لإنقاذه ولكننى فى حرج تلقيت خطاباً رسمياً ويجب أن أعرضه عليك " .

أطلعنى تشيربكوف على الخطاب وكم كانت دهشتى عندما قرأت توقيعات من كتبه .. لقد كان من مدحونى من قبل بسبب جهودى فى الحفاظ على صحة أندروبوف طوال تلك الفترة الطويلة لو كان هذا الخطاب قد ظهر فى عامى ١٩٣٧ أو ١٩٥٢ أبان حكم ستالين لكن بمثابة دليل على مؤامرة لقلب نظام الحكم والحكم علي بالإعدام .

أجبت رئيس المخابرات بأننى لا أنوى تقديم كشف حساب للمخابرات وللذين لا يفهمون شيئاً فى الطب . ولكننى أستطيع كعضو فى اللجنة المركزية أن أقدم تقريراً مكتوباً والتحدث عن الوضع المرتبط بمرض أندروبوف . ان ممثلى المخابرات حضروا من قبل مشاوراتنا واستشارة البروفيسور الأميركى روبين ويعرفون رأيه جيداً كما أنهم يراقبوننا جيداً فى كل خطوة نقوم بها ، " وأن أندروبوف يعنى لى الكثير جداً ولو كنت طبيباً آخر لرفضت الاستمرار فى عملى واقترحت عليك استدعاء أطباء آخرين ولكننى سأكون خائناً لو تخليت عنه فى الأيام الأخيرة لحياته " .

صمت تشيربيكوف لأنه كان يعى أسباب غضبى وثورتى .. وبدا الأسف على وجهه ، ربما خشى أن أخبر بقية أعضاء المكتب السياسى بأن أيام أندروبوف معدودة فتلك الحقيقة كان يعرفها القليلون ومنهم أنا وهو .

قيادة ثلاثية !!

وبحثت مع أندروبوف بعد ذلك كيف يمكن أن أتصرف فى حالة الضرورة ، ومع من أبحث الأمور التنظيمية والسياسية المترتبة على مرضه ؟ فقال لى على الفور : تستطيع ذلك مع المارشال أوستينوف وزير الدفاع .. راقنى ذلك فقد كان أوستينوف أحد مرضاى وتربطنى به علاقات صداقة وتفاهم .

اتصلت تليفونياً بأوستينوف الذى طلب منى الحضور إلى مقر وزارة الدفاع وكم كانت دهشتى عندما وجدت أوستينوف فى فزع مما قلته له عن حالة أندروبوف ، فقد كنت أظن أن تقاريرى عن حالة أندروبوف الصحية لأعضاء المكتب السياسى تنبئهم بالأخطار المحتملة .. قال لى أوستينوف وزير الدفاع آنذاك : " يفغينى ، كنت أعرف أن أندروبوف مريض للغاية ولكنى لم أتصور أن يصل إلى هذه الحالة " .

وأضاف : " افعل كل ما تستطيعه للحفاظ على حياته فهو يعنى الكثير اليوم لبلادنا. بعد ذلك علينا التفكير فيما يجب عمله .. فلنجتمع سوياً مع تشيربيكوف بدأ من الآن " .

كان أوستينوف ماكراً فى دعوته تشيربيكوف لاجتماعاتنا ، لقد

أراد أن يكون الأخير شاهداً على الحالة الصحية لأندروبوف وخاصة وهو قريب من أندروبوف وحتى تكون اجتماعاتنا تحت نظر المخابرات ولا تثير ريبة كما أن تشيربيكوف لديه معلومات كبيرة عن أحوال البلاد فقد تفيدنا فى تقرير المسائل .

وفى الوقت الذى كان يرقد فيه أندروبوف فى المستشفى كان غورباتشوف فى نفس المستشفىٰ لإجراء فحوصات طبية دورية ولما عرف أندروبوف ذلك طلب منى دعوته للحضور إليه . حذرت جورباتشوف من خطورة مرض أندروبوف وعدم تفاؤلى بنتيجة علاجه وهكذا عرف غورباتشوف بعد أوستينوف أن أيام أندروبوف أصبحت معدودة .

وفى ديسمبر عام ١٩٨٤ انعقدت اللجنة المركزية قبلها حاول أندروبوف استجماع ما لديه من قوة لحضورها ولكنه لم يستطع خداع مرضه .. وفى تلك الدورة توجه أندروبوف إلى المجتمعين برسالة خطية تمت قراءتها فى الاجتماع وتم انتخاب أعضا جدد فى المكتب السياسى كما تم اختيار يلتسين ليكون أحد أعضاء رئاسة مجلس السوفييت الأعلى .

وصية اندروبوف

توالت اجتماعاتي مع أوستينوف وفى إحدى المرات أخبرنى بأن أندروبوف يرى فى غورباتشوف أن يكون خليفته وأضاف قائلاً فى حضور رئيس المخابرات : " هذا اختيار صحيح ، فنحن بحاجة إلى زعيم صغير السن يعرف خبايا الحزب جيداً وغورباتشوف ظل يعمل خمس سنوات فى هذا المكتب السياسى وسيستمر فى عمل ما بدأه أندروبوف يجب أن نفعل ما نستطيعه حتى نحقق أمنية أندروبوف "

ولكن بعد عشرة أيام فاجأنى أوستينوف حينما قال لى : " يفغينى يجب أن نخبر تشيرننكو بحقيقة مرض أندروبوف ويجب تحذيره بأنه يمكن حدوث أى شىء فى الفترة المقبلة .

ولم أتمالك نفسي وقلت له : مرة أخرى يعود ترشيح تشيرننكو للظهور .. أنت تعرف جيداً مع أعضاء المكتب السياسى أنه مريض جداً ولا يمكنه قيادة البلاد" .. فأجابنى أوستينوف : " يفغينى لا تقلق فنحن لا نتكلم عن ترشيحه ولكن يجب إخباره بالحقيقة كاملة فهو شكلياً الرجل الثانى فى الحزب" .

كان تشيرننكو مريضاً للغاية .. يعيش بالكاد على استنشاق الأكسجين وتناول العقاقير بشكل مستمر نتيجة لمرض الرئتين المزمن

الذى أصبح صعباً إيقاف مضاعفاته وفى أحد لقاءاتى به أبلغته بحالة أندروبوف فرد على بهدوء تعود عليه أعضاء المكتب السياسى بأنه يعرف خطورة مرض أندروبوف وإمكان تطوره .

قال لى ذلك وأنفاسه متقطعة بينما كان ينظر إلى بنظرة مفادها : ماذا تريد منى لأندروبوف ألا ترى حالتى .. من الأحسن أن تفكر فى كيفية إخراجى من حالتى الصحية المتدهورة أو نصحى بدواء ما أتناوله لعل وعسى .

وفى لقاءاتى الأخيرة بأوستينوف سألنى الأخير هل يعلم تيخونوف رئيس الوزراء العجوز بمرض تشيرننكو الخطير لأن ذلك سيلعب دوراً في تحديد الزعيم المقبل ؟ فأجبته :" إنه لا يعرف ذلك فقط بل أنه أبدى لى أسفه لقرب خروج تشيرننكو من هرم السلطة نتيجة عجزه ومرضه العضال" .

وفى نهاية يناير ١٩٨٤ بدأ أندروبوف يفقد وعيه وفى عدة فترات نتيجة لازدياد تراكم السموم فى دمه وأصبح واضحاً أن موته أصبح منتظراً بين لحظة وأخرى .. وبالفعل فارق أندروبوف الحياة فى ٩ فبراير ١٩٨٤ .

كانت فترة حكم أندروبوف قصيرة للغاية فلم يتمكن الشعب من

تقييم الرجل بشكل كامل وساد شعور بخيبة الأمل المقبل ، هل سيكون شخصية شابة ذات أفكار تقدمية أم هل ستستمر الأرستقراطية فى الحكم ؟ .

مؤامرة العجائز !!

كانت أحاديثى السابقة مع أوستينوف حول اعتقاد أندروبوف بأحقية جورباتشوف فى خلافته قد جعلتنى أتوقع تنصيب غورباتشوف زعيماً للبلاد ولكنى فوجئت بأوستينوف يمر على فى المستشفى فى ١١ نوفمبر ليقول لى : " يفغينى .. الأمين العام القادم سيكون تشيرننكو ، لقد تقابلت أمس مع جروميكو وتشيرننكو وتيخونوف وأحسست من حوارنا أن جروميكو يطمع فى هذا المنصب وأن تيخونوف قد يؤيده ويعضده فى ذلك . لذلك أخذت المبادرة باقتراح تولى تشيرننكو قيادة البلاد .. فأوقع فى يدهم ووافقونى .. صدقنى لم يكن هناك سوى هذا المخرج " .

لم ينبس أوستينوف بكلمة عن غورباتشوف وعن وصية أندروبوف .. لقد فهمت أن أوستينوف قد أحس بأن الآخرين لن يؤيدوا ترشيح غورباتشوف لزعامة البلاد ولهذا كان من مصلحته ترشيح تشيرننكو

الضعيف المريض الذى يمكن التأثير عليه .. ووافق تشيرننكو على ذلك بشكل غير مبدئى مبدياً أنه لا يستطيع رفض ضغط المؤسسة العسكرية القوية بقيادة أوستينوف .

كان المجتمعون الثلاثة الشيوخ يدركون أنه فى ظل وجود تشيرننكو المريض يستطيعون توطيد مواقعهم فى السلطة بل وسيحصلون على استقلالية أكثر للتصرف مما كان فى عهد أندروبوف ولم أستطع كبح جماحى فقلت لأوستينوف .. كيف تختارون مريضاً على أعتاب الموت لزعامة البلاد .. لقد قلت لك ذلك أنت وأندروبوف من قبل .. " ولم يعرف كيف يجيبنى فأدار ظهره إلي وغادر وهو يهمهم بشفتيه .

ومن جديد مر أمام عيني شريط الذكريات الذى ارتبط بمرض تشيرننكو .. لقد كان يعانى من مرض مزمن فى الرئتين مع تمدد فى الحويصلات الهوائية وهذا المرض يعرف فى الأوساط الطبية باسم "ايمفيزيما" وكان معتاداً على الذهاب إلى القرم فى شهر أغسطس من كل عام للراحة والاستشفاء وفى أغسطس عام ١٩٨٣ إبان حكم أندروبوف زاره فى القرم وزير الداخلية السوفييتى الذى كان صديقه المقرب وقام بإهدائه سمكة " رنجة " تم إعدادها منزلياً .. وكانت الإجرادات العادية فى مثل تلك الحالة تقضى بأن تقوم معامل خاصة

تابعة لرجال الأمن في فحص كافة الأغذية التى يتلقاها زعامات البلاد سواء كان ذلك فى موسكو أو فى القرم .

سمكة وزير الخارجية !

وحدث أن تلقى الزعيم سمكة مملحة مدخنة .. ولم يتشكك رجال الحرس فى مخاطر السمكة خاصة وأن الذى أهداها لوزير الداخلية بنفسه ، الصديق الصدوق لتشيرننكو فلم يبعثوا بها للفحص .

وللأسف كانت السمكة فاسدة وتسببت فى ظهور أعراض التسمم الحاد على تشيرننكو الضعيف وبدأت فى الظهور أعراض خطيرة فى القلب والرئتين . وذهب على الفور إلى القرم اخصائيون واتصلوا بى طالبين نقل تشيرننكو إلى موسكو على الفور .. كانت الحالة خطيرة للغاية واقترب ظل الموت من الرجل .

وأبلغت أندروبوف بما حدث وبخطورة الوضع الصحى لتشيرننكو ولكنه لم يفقد هدوءه وكان بدوره يستعد للذهاب فى أجازة إلى القرم وسألتـــه : " هل سيؤثر تشيرننكو على خططه فى السفر ؟ " فقال لى : " لا أستطيع مساعدته فى شيء ، سيبقى فى اللجنة المركزية غورباتشوف وسيستطيع التعامل مع التطورات بهدوء ولذلك سأسافر

فلا توجد لدى فرصة لالتقاط أنفاسى قبل اجتماع اللجنة المركزية إلا الآن فقط " ..

استطعنا بصعوبة إنقاذ تشيرننكو من الموت ولكن المرض تركه فى حالة صحية صعبة .. لقد تحول إلى إنسان عاجز يلتقط أنفاسه بصعوبة ويلهث أثنساء حديثه .. وكانت اللجنة المركزية على علم بذلك .

كان رد فعل أندروبوف غير متوقع على حالة تشيرننكو .. كنت أحسبه سيسعد من اختفاء غريمه السياسى من على مسرح الحياة السياسية ولكنه أبدى أسفه وقال لى : " لن نتعجل اتخاذ قرار بشأن تنحيته .. فلنتركه يقضى فترة النقاهة ويستجمع قواه وعندما أرجع من أجازتى سأفكر فى كيفية الاستفادة من خبرته " .. وكان واضحاً لى أن تشيرننكو لن يستمر فى عضوية المكتب السياسى .. ولكن القدر لعب لعبته مرة أخرى .

وفى اليوم التالى من انتخاب اللجنة المركزية الأمين العام الجديد ذهبت كالعادة مع أطبائى إليه فى منزله الذى كان يقطن فيه من قبله خروشوف وبودجورنى . كان المنزل قديماً ، تعترى طلاءاته من الداخل بعض التشققات والشروخ التى حاولوا إخفاءها ببعض اللوحات الفنية

.. لم نجد تشيرننكو فى منزله واضطررنا لانتظاره .

جاء تشيرننكو متأخراً عن العمل كان وجهه شاحباً بينما اعترى شفتيه اللون الأزرق .. تقطعت أنفاسه وهو يخطو ليصافحنا كان أول شيء قلناه له .. " فى مثل حالتك الصحية ننصح بعدم العمل ، وهاأنت تقتل نفسك لماذا وافقت على القيام بأعباء هذا المنصب الثقيلة ؟ " فرد قائلاً : " أعرف أن ذلك شاق على ولكن لقد أصر رفاقى على اختيارى ولم يكن أمامى بد من مواجهة طلبهم " وتذكرت على الفور تلك التعبيرات المعتادة المملة مثل " رفاقى " كم مرة سمعتها من بريچينيف وأندروبوف وكم مرة قيلت تلك الكلمة لتغطية حب السلطة والطموحات السياسية .

حاول تشيرننكو فى البداية أن يكمل ما بدأه أندروبوف ولكنه لم يستطع الوقوف أما أوستينوف وتيخونوف اللذين استغلا عجزه وأصبحا يقومان بمهماته .. لقد أجبراه على دعوة مؤتمر الحزب السابع والعشرين للانعقاد على وجه الاستعجال ، كان واضحاً أنهم يريدون توطيد مواقعهم فى ظل الرجل الضعيف المريض قبل أن يموت وقبل أن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن .. فى إحدى المرات حذرته فقال لى : " لا أستطيع عمل أى شيء فالرفاق يريدون عقد المؤتمر هذا العام لإقرار خطة الدولة الخمسية " ..

جورباتشوف فى مهب الريح

كانت تلك مجرد حجة لتبرير خططهم ولكن المؤتمر لم ينعقد فى عام ١٩٨٤ بسبب موت تشيرننكو .. كانت علاقة تشيرننكو بغورباتشوف معقدة للغاية .. لم ينس تشيرننكو العجوز أن أندروبوف حاول إقصائه عن المسرح السياسى وأن يضع غورباتشوف بديلاً له . وكان أغلب أعضاء المكتب السياسى عدا أوستينوف يرون أن حياة تشيرننكو ستنتهى قريباً وأنه من الواجب إبعاد غورباتشوف النجم الصاعد القوى عن المكتب السياسى حتى لا يخلفه .

وكان أكثرهم كراهية لغورباتشوف رئيس الوزراء " تيخونوف " وكنت شاهداً على مناقشة ساخنة بين تشيرننكو وتيخونوف الذى عارض بشدة أن يقود اجتماعات المكتب السياسى غورباتشوف فى حالة غياب تشيرننكو .

تعذيب تليفزيونى !!

كانت الضغوط قوية على تشيرننكو وانتابت علاقته بغورباتشوف البرود .. ولم ينقذ غورباتشوف من الضياع سوى إحساس تشيرننكو بأن غورباتشوف هو الشخص المطلوب لإدارة العمل اللجنة المركزية ،

فهـــو صغير يستطيع القيام بأعباء العمل السياسى والتنظيمى الثقيلة .

تدهورت صحة تشيرننكو وساءت حالته ولم يشفع له مرضه فقد استغله أسوأ استغلال جريشين سكرتير الحزب فى موسكو .. فأخرجه بالقوة من على فراش الموت ليعرضه على شاشة التليفزيون قبل انتخاب مجلس السوفييت الأعلى ليلقى كلمة أوشك أن يلفظ بآخر أنفاسه أثناءها .

لم أحس بالخجل من نفسى مثلما أحسست فى تلك اللحظات منذ بداية عملى كطبيب .. قد يقولون أن ذلك أحد مظاهر الأنظمة الشمولية ولكننى رأيت مواقف مشابهة لرئيس فرنسا المريض چورج بومبيدو .

ومات أوستينوف فجأة وبصورة مريبة .. ففى إحدى المناورات العسكرية فى خريف ١٩٨٤ فى تشيكوسلوفاكيا أحس أوستينوف ووزير دفاع تشيكوسلوفاكيا بدوخة وارتفاع فى درجة الحرارة وآلام بالرئتين .. كان تطابق صورة المرض بين الوزيرين مثيراً للغرابة .. ونجا الوزير التشيكى من الموت ولكن مرض أوستينوف قد ازداد شدة والرجل كان يعانى من تمدد جدار شريان الأورطى وجاء التسمم ليزيد

من هذا التمدد حتى انفجر الشريان الرئيسى فى الجسم ،، فأدخلناه إلى غرفة العمليات لإنقاذه ولكن الرجل فارق الحياة من جراء النزيف الدموى الشديد .. لقد ذكرنى موت أوستينوف بمصرع " بومدين " الغامض ..

وبموت أوستينوف ازداد الوضع فى البلاد وفى السلطة صعوبة .. وأصبح تشيرننكو مقيماً فى المستشفى بصورة شبه دائمة .. وكان غورباتشوف يتصل بى من حين لآخر للإطمئنان على صحته وبدأ تيخونوف يتخوف على مستقبله .. وفى مساء ١٠ مارس توقف قلب تشيرننكو واتصلت تليفونياً بغورباتشوف لأخبره بموت تشيرننكو وكان من الواضح أنه استعد لذلك فدعانى للحضور إلى الكرملين لحضور اجتماع المكتب السياسى .

عصر جديد !!

رأس اجتماع المكتب السياسى غورباتشوف وأعطانى الكلمة لكى ألقى تقريراً عن مرض تشيرننكو وموته .. كانت الغالبية من الأعضاء يعرفون الحقيقة بدون حاجة إلى حديثى .. لم يسألنى سوى " بوناماريوف " الذى أعطانى سؤالاً تافهاً .. وانتهى الجزء الأول

من الاجتماع ..

وخرجت من الاجتماع وأنا أفكر فى الأعوام الأخيرة لأندروبوف وتشيرننكو .. لقد حاز الإثنان على كل ما يحلم به الإنسان ألا وهو السلطة والشهرة والمال ولكنهما كانا غير سعيدين لأنهما لم يمتلكا أعز شيء وهو الصحة .. وظل سيف الموت مسلطاً على رقبتيهما .

وعندما خرجت من المبنى نظرت بدهشة إلى منظر الميدان الأحمر أمامى .. فلقد كان خالياً بينما تومض اللمبات الفسفورية التى تقف تحتها العربات السوداء الفارهة .. كانت تلك ليلة تاريخية .

وعنما اجتزت بوابة الكرملين ، لم أكن ساعتها أعرف أننى أنتقل من عصر إلى عصر آخر ابتدأت فيه " البريسترويكا " نعم لقد أحدثت تلك الليلة انقلاباً فى حياة العالم وفى حياة كل منا ، وبدءاً من مارس ١٩٨٥ بدأت أحداث درامية وتراجيدية لم نكن نتوقع حدوثها فى تلك الليلة التى خيم عليها الصمت الثقيل ورتابة الانتظار .



الرئيس جمال عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧

الرئيس جمال عبد الناصر في مباحثات خروشوف في موسكو



الرئيس جمال عبد الناصر خلال زيارة لموسكو



الرئيس جمال عبد الناصر مع فلاديمير فينوجرادوف، النائب الأول لوزير خارجية الاتحاد السوفيتي (١٩٧٠)

عبد الناصر فى ذروة التصعيد عشية حرب ١٩٦٧



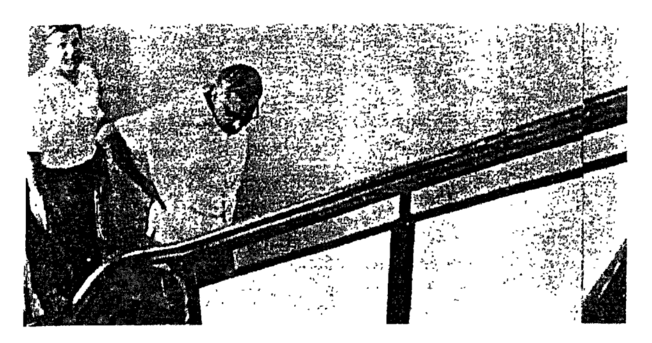
.. وفى تسخالطوبو

أثناء رحلة العلاج الشاقة



وفى سبتمبر (١٩٧٠) متكئاً على

مساعديه مع نهايات مؤتمر القمة العربى



عبد الناصر يصعد السلم ويبدو عليه علامات الإرهاق



فى المصحة بتسخالطوبو

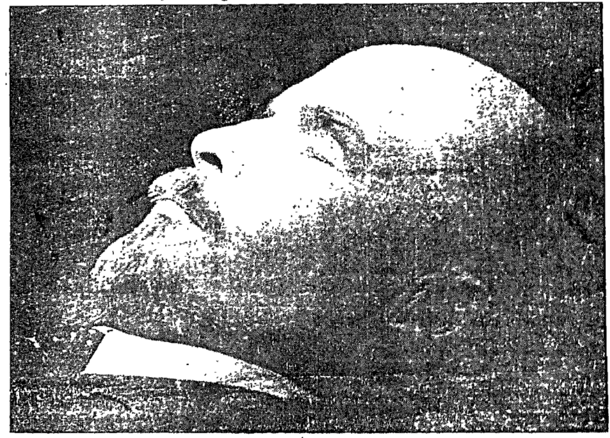
أنور السادات

↑ لينين : الثائر

لينين وزوجته (صورة نادرة) ↓



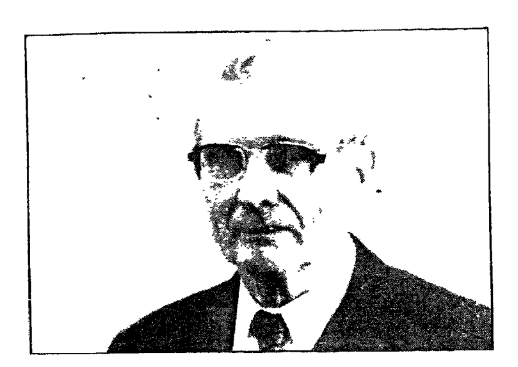
لينين فى أواخر أيامه جالساً على مقعد متحرك



ومحنطاً بعد وفاته

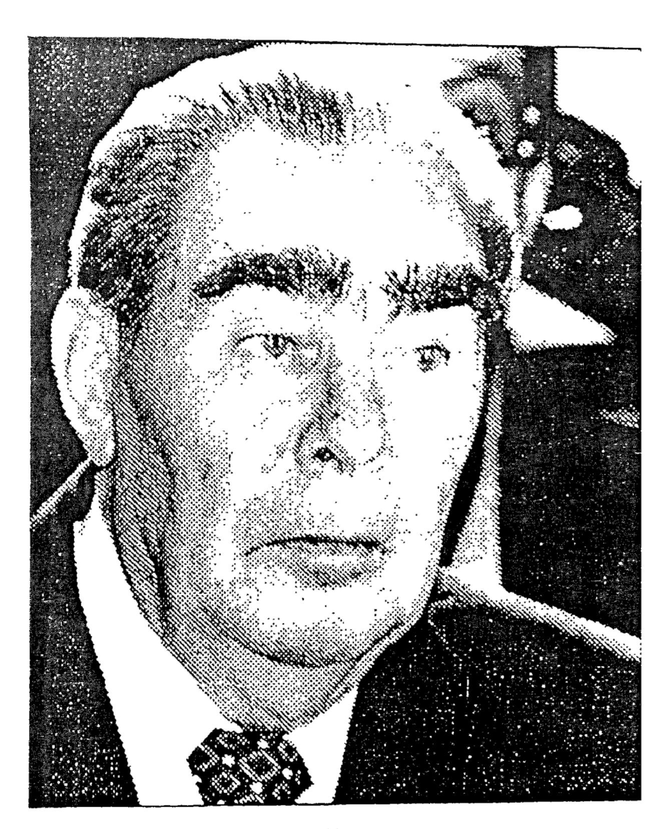


ستـــــالين



سوسلوف رأي الإبقاء على سر مرض بريجنيف في دائرة محدودة

لقاء الأطباء السوفييت والأمريكان فى الولايات المتحدة



بريجنيف



اولبريخت يرفض علاج الاطباء بسبب الصراع على الحكم



□ هونيكر منافس أولبريخت يستدعي الاطباء لعلاج الرئيس



بريچينيف فى زيارة لباريس



بريجنيف وبودجورني

ويصافح الميارديير (الأحمر) هامر

كوسيجين !!


في رحلة استشفائية مع شازوف الى باكو


بريجنيف بعد ان ساءت حالته مع كبير الاطباء السوفييت في جزيرة القرم في عام ١٩٨٢ .

بريچينيف لحظة الوفاه



اندروبوف مع الرفاق يحملون نعش بريجنيف اثناء جنازته



تشيرنينكو



اندريه غروميكو في اجتماع مجلس السوفييت الاعلى



الرئيس الجديد خليفة بريجنيف ـ اندروبوف برفقة وزير الدفاع ديمتري استينوف في يوم العمال ١٩٨٢



أندروبوف على أكتاف الرفاق



بريجنيف مع نيكسون في بداية الوفاق الدولي في يالتا عام ١٩٧٤ .



يتبادل مع نيكسون نخب الصداقة والوفاق في موسكو ١٩٧٢ .



البروفيسور شازوف في لحظة تفكير



جورباتشوف يقبل زوجته



يعتمر القانسوة اليهودية عند زيارته لمتحف

" يادفا شيم " الخاص بذكرى " المحرقة النازية " في فلسطين المحتلة !

Евгений ЧАЗОВ

ЗДОРОВЬЕ И ВЛАСТЬ

Воспоминания «кремлевского врача»



Новости

Москва, 1992

الفهـــرس

صفحة



دار الطباعة المتميزة

ت. ٢٩٩١٣٥٤٢

هـذا الكتـاب ..

الطب يفضح السياسة ، يكشف أسرارها ويعريها .. السياسى بشر مثلنا .. يمرض .. والمرض جزء لا ينفصل عن " السياسة " ، كلاهما يتأثر بالآخر ويؤثر فيه .. وعندما يمرض السياسى لا يجد غير الطبيب .. أقرب الناس إليه .. والفرصة متاحة للأخير ليسجل لحظات الضعف ونوازع الخير والشر وربما تنكشف فى أثناء ذلك أسرار مثيرة وخطيرة لا تخطر على بال .

التاريخ السياسى بتفاصيله الدقيقة والغريبة يجعله كبير أطباء الكرملين البروفيسور يفغينى شازوف آخر وزير للصحة فى الاتحاد السوفييتى الذى تفكك كتاباً مفتوحاً أمام الجميع وأمامك أيها القارىء العزيز .

● لحوم بشرية جاهزة للطبخ فى جناح بوكاسا ● لا تعط السلطة لامرأة وإلا تحولت إلى طاغية ●هل مات بومدين مسموماً ؟!

● الأسباب المعروفة لوفاة الزعيم الجزائرى غير صحيحة ●المخابرات السوفييتية حمت الأطباء الروس فى الجزائر ● أسرار مرض وموت عبد الناصر● بودغورنى لم يكن متحمساً لعلاج عبد الناصر

● لماذا دعانى الرئيس السادات إلى القاهرة ؟!● رحلتى السرية إلى القاهرة و " الموساد "● لينين لم يمت بالزهرى ولكن بضمور فى المخ● فيلسوف الحزب " سوسلوف " وكراهية الأطباء● دبلوماسية الطب السرية بين موسكو وواشنطن ● أسرار مرض بريجينيف بريجينيف يدمن الحبوب المهدئة ويقع فى غرام ممرضته● شمة هواء عجلت بموت " أندروبوف " وسمكة رنجة قضت على " تشيرننكو "

● تشيرننكو كاد أن يقضى على غورباتشوف